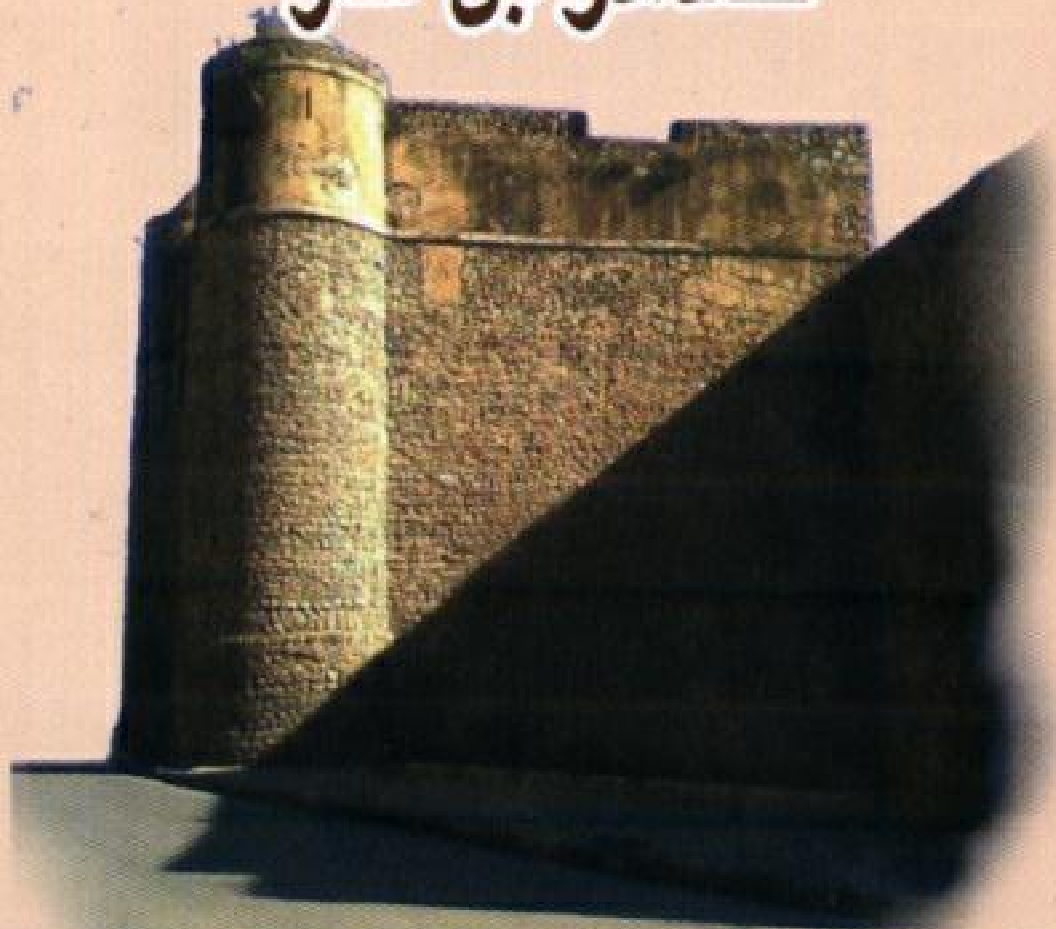
لقطة العجلان

في شرف الشيخ عبد القادر بن زيان
وأنه من بني زيان ملوك تلمسان

للشيخ ابي راس الناصر (ت 1238هـ)

دراسة وتحقيق:

حمدادو بن عمر



وزارة الشؤون الدينية والأوقاف
تلمسان عاصمة الثقافة الإسلامية 2011

لقطة العجلان

في شرف الشيخ عبد القادر بن زيان
وأنه من بني زيان ملوك تلمسان

للشيخ أبي راس الناصر (ت 1238هـ)

دراسة وتحقيق

الأستاذ حمدادو بن عمر

وزارة الشؤون الدينية والأوقاف

تلمسان عاصمة للثقافة الإسلامية 2011

1432هـ - 2011م

رقم الإيداع القانوني: 1993– 2011 :dépôt légal

ردمك: ISBN 978_9947_907_72_6

تقديم

لعل من أبرز سمات التراث الجزائري أنه يتميز بالتنوع والتعدد، سواء في جانبه الحضاري أو الثقافي، بحكم بلورته لواقع البيئة الجزائرية المصبوغة أصلا بهذه السمة، وما للأمر من تأثير أنتج أنماطًا أدبية وأشكالاً فنية، رسمية وشعبية، كلها تغني هذا التراث وتكمل ملامحه في نطاق وطني متناغم ومتناسق.

ويعتبر تراث أبي راس الناصر المعسكري لاسيما التاريخي منه؛ من حيث هو تراث غني مفيد، في طليعة ما أبدع العلماء الجزائريين على مستوى نقل الواقع وترجمته. وعلى الرغم من أنه ظهر ببلاد المغرب الأوسط، وتحديدا في بلاد الراشدية، فإنه لم يلبث أن اصطبغ بصبغة العالمية، حيث احتضنته أيادي كثير من المستشرقين المنصفين في البداية، مثل السيد أرنو، والجنرال فوربيقي، وغيرهم من المؤرخين العرب والأجانب ممن احتفظت الذاكرة بأسمائهم وببعض إنتاجهم، وإن لم يهتم بتدوينه إلا في حالات قليلة، على نحو ما تختزنه دفاتر وكنانيش متفرقة.

وأذكر أنه يوم كان الباحث ينجز رسالته عن تراث أبي راس الناصر – قبل نحو إحدى عشرا عاما – صادفته صعوبات كثيرة

في محاولة تتبع تراث هذه الشخصية الفذة وجمعها، مهما يكن مصدرها (نساخها)، خاصة وأنه كان بصدد دراسة تعريفية جامعة، إذ تسنى له الوقوف على نصوص وافرة بالنسبة لبعض مدونات أبي راس التاريخية والأدبية والعقدية،... وتعذر عليه ذلك فيما يتعلق بمدونات أخرى؛ حيث لم يعثر لها إلا على أسماء قليلة وإشارات محدودة.

وإدراكا مني لأهمية هذا التراث الزاخر بالمعلومات القيمة والإضافات الحثيثة، وشعورا بالحاجة إلى مزيد من البحث فيه، لاستكمال العثور على جل تراث أبي راس الناصر الغزير، وتعميق درسه وتحليله وتحقيقه، وإبراز الأحداث التاريخية والتعريف بنصوصها، وحث الباحثين المولعين بهذا النوع من التراث إلى تناوله في رسائل دبلوم الدراسات العليا وأطروحات الدكتوراه.

وكان هذا الكتاب الذي أسعد اليوم بتقديمه؛ بعد أن سعدت بتوجه الباحثين لمثل هذه الدراسات التراثية لاسيما التاريخية منها، وكان الكتاب الذي أنجزه الباحث الأستاذ حمدادو بن عمر، في طليعة الدراسات التي أنجزت في هذا المضمار، إذ تناولت دراسة أحد مؤلفات أبي راس الناصر التاريخية؛ حول شرف ونسب بني زيان ملوك تلمسان، بتتبع دقيق، وتوثيق محكم، وتحليل جيد، ومنهج

ملائم. وهي لا شك إضافة طيبة في تراث حاضرة تلمسان التاريخي؛ وهذا ما يدفع بالباحثين بعده إلى الانكباب على هذا النوع من الدراسة، ولاسيما على الصعيد الأكاديمي، حيث يتم تشجيع مثل هذه الدراسات، مما يزخر به تراثنا التاريخي، مشجعا كل راغب مؤهل لخوض غماره الصعب.

وقد كان فتح هذا الباب خير وسيلة لتجاوز العوائق الإدارية والأكاديمية التي كانت تحول باستمرار دون إدخال الدرس التراثي في مقررات الجامعة. وهي عوائق أخذت والحمد لله تزول الآن بعد أن أتاح الإصلاح الجامعي إمكان إنشاء وحدات بحث علمية أكاديمية للتخصص في هذا الحقل، إذا ما توافر لها التأطير العلمي اللازم.

ومما يدعو إلى الاطمئنان – والافتخار كذلك – أن الأستاذ كان من أبرز الأساتذة الذين تخصصوا في مجال دراسة وتحقيق تراث أعلام الجزائر خلال مختلف حقبها التاريخية، وكان الباحث ممن الذين اقتحموا الميدان اليوم، وكانوا بهذا الاقتحام، كمن يقدم على مغامرة لا يدري عاقبتها والمصير.

وإن هذا الكتاب الهام الذي ينشر لأول مرة؛ ليعتبر أصدق وثيقة تاريخية وأكملها عما قام به أبو راس الناصر، حول التعريف بشرف ونسب بني زيان ملوك تلمسان، ولعل مواصلة البحث والتأليف

في هذا المجال الخصب الفسيح، أن يبوئ صاحبه موقعاً مرموقاً بين الذين عنوا بتسجيل تراجم الأعلام الأفذاذ الذين أتيح لهم أن يواكبوا حياتهم المليئة بالمفاخر العالية الأصيلة، ويشهدوا ما لهم فيها من مآثر جليلة خالدة. ودراسة وتحقيق بعضا من مؤلفاتهم الجديرة بالدراسة والعناية الأكاديمية.

ومما يحثني على مزيد من التنويه بالباحث أنه كان مقتنعًا بخط سيره في البحث، فلم يقتصر على ما أنجزه في هذه الرسالة، بل ضاعف جهوده وهيّأ كتابه ليكون إضافة تاريخية في تاريخ تلمسان إلى جانب التنسي صاحب كتاب "نظم الدر والعقيان في شرف ملوك بني زيان"، سعدت بتقديم له.

وإني - إذ أتمنى أن يواصل الأستاذ بحثه في التعريف بتراث أعلام الجزائر عامة - أدعوه إلى مواصلة الاهتمام بتراث أبي راس الناصر على وجه الخصوص، والكشف عن بعض مدوناته الدفينة، راجياً له دوام التوفيق والسداد.

والله من وراء القصد.

الأستاذ الدكتور فغرور دحو

وهران، في 29 جمادى الأولى 1431هـ

المو افق 14 أفريل 2010م

بسم الله الرحمن الرحيم

مقدمة

ينتمي هذا العمل إلى البحث في تراث الفكر الأدبي الإسلامي، وإذا كان هذا الصنف من الموروث العلمي يحظى باهتمام واضح من الباحثين الأكاديميين وغيرهم، فإن من أسباب ذلك حتما القيمة العلمية التي تبرز في ذاته، ثم تواصله مع غيره من عامة شرائح المجتمع الإنساني، إلى جانب ذلك الزخم الكبير كما ونوعا مشكلا دعامة ضخمة تعكس أهم تجليات الهوية العربية والإسلامية.

إذا كان هذا هو واقع التراث الأدبي في عموم أرجاء الأمة الإسلامية، وإذا كنا على دراية من أنّ قسما من هذا التراث المغاربي ذو هوية ضاربة جذورها في عمق البيئة الأدبية والتاريخية، وأنّ جله لا يزال مخطوطا قابعا داخل رفوف تلك خزائن المكتبات الخاصة والعامة ينتظر الدراسة والتحقيق، بالرغم من احتوائه على معلومات قيمة ونفائس لا يستهان بها قد تساعد

الباحث على فهم الواقع الأدبي والتاريخي و...لتلك الحقبة التاريخية من الزمن، تبينّ لنا أنّه يحتاج إلى عناية أكبر من ذوي الهمم العلمية العالية، الغيورة على تراث أجدادها وآبائها.

وعلى هذا الأساس فإنّ محاولتنا هذه؛ إنما هي في الحقيقة اجتهاد يراد به رد الاعتبار إلى تراثنا العربي الإسلامي، وإيماننا بأنّ السعي وراء تحقيق هذا التراث يخدم بشكل أو بآخر ثقافتنا العربية الإسلامية ومكوناتها من جهة، ورد الاعتبار للغة العربية وهويتها من جهة ثانية.

القسم الأول

التقديم للمؤلف والكتاب

الباحث على قيم الواقع الأدبي والتاريخي و... لتلك الحقبة التاريخية من الزمن، تبين لنا أنه يحتاج إلى عناية أكبر ممن ذوي الهمم العلمية العالية، الغيورة على تراث أجدادها وآبائها.

وعلى هذا الأساس فإن [illegible] الحقيقة لجهاد يؤدي به رد الاعتبار إلى تراثنا العربي الإسلامي، وإهمالنا لشأن النص وراء تحقيق هذا التراث بشكل أو بآخر ثقافتنا العربية الإسلامية ومكوناتها من جهة، ورد الاعتبار للغة العربية وهويتنا من جهة ثانية.

التقديم للمؤلف والكتاب

دوافع التحقيق

إنّ التجربة المتواضعة التي خضتها عندما أقدمت على تحقيق أحد مخطوطات الشيخ أبي راس الناصر المعسكري (كتاب الشقائق النعمانية)، زادت من قوة عزيمتي على الانكباب على تحقيق تراث هذا الرجل الفذ في فنون مختلفة؛ التاريخية والأدبية منها والعقائدية والفقهية،...

ذلك أن تراث الشيخ أبي راس الناصر حقل من حقول الذاكرة المعرفية والتاريخية للجزائر خلال العهد العثماني. إضافة إلى أن هذا التراث عموما يحاول من خلاله قراءة ذهنيات وعقليات هؤلاء الأعلام من خلال مدوناتهم وكناشاتهم، ومن ثم فهم الواقع المعاش من خلالها في تلك الفترة من التاريخ العثماني بالجزائر.

وأثناء قدومي على تحقيق هذا المُؤلَف راودتني بعض التساؤلات التي لطالما كانت هاجسا يرافقني أثناء هذه الدراسة؛ متجسدة أساسا في البحث والتحقيق في التاريخ المحلي للجزائر، وبخاصة مدينة تلمسان. ثم متى يُحقق تراثنا المخطوط بأيدي غيرنا

من المستشرقين المنصفين؛ رغم اعترافنا بفضل السبق لهم في هذا المجال؟.

ثم كون هذا المؤلَف يعتبر إضافة تاريخية وأدبية؛ يبحث في شرف ونسب قبائل بني زيان القاطنة بتلمسان خلال العهد العثماني بالجزائر. ويمكن أن يكون مصدرا مهما يعتد به في تحليل وتوثيق هذه المرحلة المهمة من تاريخ الجزائر؛ لاسيما فترة العهد العثماني التي يجني البعض على وصفها بأنها فترة ضعف ثقافي وفكري، والعكس ما تثبته تلك المؤلفات الغزيرة لعلماء تلك الفترة.

مؤلف الكتاب وعصره

تعد الفترة الأخيرة من العهد العثماني خصوصا تلك الفترة الممتدة ما بين 1737م إلى 1823م، من أحلك الفترات في تاريخ الناحية الغربية والتاريخ الجزائري عامة، وذلك بسبب سيطرة الأوربيين على حوض البحر الأبيض المتوسط، وسياسة الحكام والسلاطين العثمانيين اتجاه الرعية. إلى جانب هذا شهدت المنطقة سلسلة من الاغتيالات، والصراع على الحكم في أوساط الحكام العثمانيين. فقد كان الانقلاب على الحكام وعزلهم أحد السمات البارزة في المسار السياسي في الجزائر. ولعل من نتائج ذلك انتشار الفساد في الجهاز الإداري.

لكن هذا لم يمنع من وجود نقاط إيجابية ساهمت في إعطاء دفع قوي لمختلف الشرائح الاجتماعية، أن تعبّر عن رأيها ومشاركتها في كل ميادين الحياة المختلفة مثل: الجهاد في سبيل الله، حيث يعد تحرير مدينة وهران من يد الإسبان عام (1206هـ/1792م)، بمثابة عملية تحريرية كبيرة تمت على يد الباي محمد بن عثمان الكبير، مما دفع بعلماء وشعراء عصره يمدحونه في حياته ويرثونه من بعد مماته، ومن جملة الأحداث التي كانت فاتحة عهده حوادث درقاوة.

أ) **بيئته السياسية**

يعد العامل السياسي من أهم العوامل الأساسية في حياة الدول من جهة، وعلى حياة العلماء والمؤرخين من جهة أخرى. فهو يؤثر على كتاباتهم وتوجهاتهم، بطريقة أو بأخرى. فيصبح المؤرخ أو المؤلف يؤرخ لحدث ما انطلاقا من البيئة السياسية، التي وجد فيها. فيعبّر بقلمه عن ذلك الحدث التاريخي، الذي يراه مهما. وله تأثير كبير على الحياة السياسية في البلاد، ومدى انعكاساتها على العلماء والمؤرخين في تلك الفترة. ولمعرفة هذه الأحداث التي عاصرها أبو راس، يجدر بنا أن نتناول بعض جوانبها في هذا البحث.

1) انتقال مقر الباي إلى معسكر

إنّ العصر الذي عاش فيه أبو راس هو آخر العهد العثماني بالقطر الجزائري على وجه العموم. ومنطقة معسكر على وجه الخصوص. أي نهاية القرن الثامن عشر وبداية القرن التاسع عشر. فأبو راس الناصر وبحكم مجاورته للسلطة العثمانية كان يشعر بهذا الخطر، ويزنه حق وزنه، فالتحرش الإسباني بالمغرب الأوسط، كان ضمن هذه الرهانات التي أثرت في محتوى أعمال أبي راس الناصر، وعليه جاءت جل مواضيعه لها الأثر الكبير على الحالة السياسية في ذلك العصر.

إنّ انتقال عاصمة الغرب الجزائري من مازونة إلى معسكر سنة (1115هـ/1701م)، كما أثبتنا ذلك سابقا، فقد جعلت الباي مصطفى بوشلاغم[1]، ينتقل من مازونة إلى معسكر حيث استمرت على هذه الحال إلى غاية سنة(1206هـ/ 1792م)[2] أين تعاقب على حكمها تسع بايات[3].

---

(1) وهو الذي خلف الباي شعبان الذي قتل سنة 1686م، وهو الذي نقل البايلك من مازونة مصطفى بوشلاغم: المعروف عند الإسبان بـ: (Dpgotillos) أي صاحب الشلاغم ، إلى معسكر.

(2) وهو تاريخ سقوط وهران في يد العثمانيين وفتحها عنوة بعد الزلزال الذي أصاب المدينة.

(3) وهم على التوالي: الباي مصطفى بوشلاغم، الباي بوكابوس، الباي حسن، الحاج عثمان، إبراهيم الميلي، الحاج خليل، محمد بوطالب الحجامي المشرفي، محمد بن عثمان الكبير. أنظر كتاب بايات الغرب الجزائري.

إن انتقال العاصمة كان له بالغ الأثر في شخصية أبي راس؛ خصوصا ما كان يحكيه له شيخه عبد القادر المشرفي المعاصر لتلك الأحداث، عن تلك الأحداث التي أدت إلى سقوط وهران سنة(1501م)، في يد الإسبان. فقد حزت هذه الأحداث في نفسية أبي راس، واعتبر ذلك خطوة لصالح النصارى ضد المسلمين بعد أن استولوا على الأندلس سنة(1492م/ 798هـ)[1].

إنّ انتقال العاصمة إلى معسكر، قد أحدث تغييرا كبيرا على الأحداث السياسية في المنطقة. وعلى المدينة بصفة خاصة. فقد أصبحت مركزا قياديا مهما في مواجهة أبشع الحملات الصليبية اتجاه المغرب الأوسط. وزيادة على هذا كانت هناك عدة اضطرابات، وحوادث تزعمها بعض رؤساء ورجال القبائل والطرق الصوفي، ضد السياسة العثمانية بالجزائر، وأخص بالذكر حوادث درقاوة التي جرت البلاد إلى فوضى كبيرة. وقد مست شظاياها بعض العلماء من بينهم الشيخ أبي راس، وقبل حوادث درقاوة هناك عامل مهم يتمثل في التقسيم والجهاز الإداريين الذين كانا معروفين آنذاك.

(1) محمد سي يوسف، دراسة مخطوط عجائب الأسفار ولطائف الأخبار، ص: 138.

2) حوادث درقاوة

تعتبر هذه الحوادث من بين أسباب تزعزع ثقة سكان الجزائر. اتجاه الولاة العثمانيين، إلى جانب بايات وهران، الذين استعملوا طرق القمع والتعذيب. وقد أشار كثير من المؤرخين إلى حوادث درقاوة، فتحدثوا عنها، كحديثهم عن بقية التمردات والاضطرابات التي كانت تتجدد المرة تلوى الأخرى طيلة العهد العثماني ثم يخب لهيبها. فقد بدأت هذه الحوادث سنة 1805م/1219هـ وبقيت مستمرة طيلة العهد العثماني، وإن كانت تختلف قوة وضعفا[1].

ومن بين المؤلفين الذين تعرضوا لأحداث درقاوة ،والذين اشتهروا بموالاتهم للأتراك: حسن خوجة، صاحب كتاب: "الأعيان في أخبار مدينة وهران". وكذلك مسلم بن عبد القادر صاحب دفتر: "بايات وهران". والمؤرخ أبو راس الناصر الذي خصها بتأليف سماه "درء الشقاوة في حروب الترك مع درقاوة". ولقد سجل الشعراء الشعبيون، الذين كان جلهم ينتصر للثوار،الكثير من جوانب هذه الأحداث، فعلى سبيل المثال نجد أبياتا من قصيدة لشاعر شعبي[2] سجل فيها أول معركة وقعت بين عبد القادر بن الشريف

---

(1) محمد الطيبي، أبو راس الناصر المعسكري، العصر والعصارة، المرجع السابق، ص:6.

(2) قيل أن صاحب القصيدة هو الشيخ بوعلام السجراري، من قرية سجرارة بنواحي المحمدية، بمعسكر.ومن نظمه:

حكي قصة الاجواد مع العثمانيين النوبة … يوم أن فزع ابن الشريف أوجاد

الدرقاوي بطل هذه الأحداث، وبـــاي وهـــران مصـــطفى منزالـــي بفرطاسة. وقد هزم فيها البـــاي، ولـــم يـــنجح إلا بفضـــل بعـــض أنصاره، الذين ساعدوه في الفرار إلى مدينة معسكر ممتطيا جـــوادا من دون سرج.

كما أشاد الشاعر بعدها في الإشادة ة والتنويـــه بـــابن الشـــريف والثوار، وصبغ ثورتهم التي كانت عـــام 1805م/1219هـ بالدينيـــة (إن صحّ التعبير)، والنصر الإلهي. ثم ذكـــر كيفيـــة دخـــول ابـــن الشريف منتصرا إلى قاعدة الباي الثانية "معسكر" وكيـــف تمكـــن من هزيمة الجيش العثماني ومحاصرته في قاعدة الباي الأولى فيما بعد "وهران". فخيم الهلع على الباي مصطفى الذي طلب الاستغاثة ويد العون من الباشا. هذا الأخير الذي استجاب لندائه وأمد أسطوله

دوك أتراك الكرسي دهوفا ترار صحبه	قـــالوا الاجـــواد علـــى حرمنـــا نزكـــاو
أنعقـد أوغاشـي الجـوار عقـد محبـة	فـــي فرطـــاسة شـــاو أنهـــا وتلاقـــاو
بالسـيف أوتـار المشط اود فـي الحريـة	وأفـــرايس العثمـــانيين لالطريـــق أبقـــاو
اتغلبوا العثمانيين واسلموا في الضربـة	أهـــل العقـــد البيضـــاء كامـــل انغـــزاو

دار الذيب العولة من لحم العثمانيي

EL MAHDI EL BOUABDELLI, DALIL EL HAIREN OU ANIS ESSAHRAN FI AKHBAR MADINATI OUAHRAN, Bulltin de la société de Géographie et d'Archéologie d'Oran, Oran, n-01, 1975,T1,P :03

بالجيش على رأسه بايا جديدا، هو محمد ابن عثمان الصغير بعد عزل الباي مصطفى المنهزم[1].

ومن بين أسباب هذه الحادثة على سبيل المثال: يرى حمدان خوجة أن تلك الأحداث كانت نتيجة لتسرب الانحلال، والضعف في الحكومة المركزية. فكان هذا الجيش يثور، ويتمرد المرة تلو الأخرى حسب الأهواء، والمطامع، ولقد تطرق عثمان خوجة لأسباب حوادث درقاوة[2]. فقال: "وأكبر المظالم التي حدثت بالجزائر، قد نجمت عن إسناد مناصب البايات إلى أشخاص ليسوا ذوي جدارة، ولا كفاءة. ومن هؤلاء الأشخاص شخص يدعى مصطفى[3](المنزالي) الذي كان صنيعا للخزناجي، ومحبوبا لديه فعين بايا لوهران. بعدما التزم بدفع مقدار كبير من المال، مقابل هذا التعيين. وليست لهذا الباي أية علاقة، ولا أدنى ارتباط مع شيوخ القبائل. بل على العكس من ذلك، كانت عبقريته تظهر في سلب أموال الرعية، وإرسالها إلى حامية، أي إلى قاعدة

(1) Bulletin de la société, op.cit. n-01 p :03.

(2) نسبة إلى العربي الدرقاوي صاحب الطريقة المشهورة في عهد الملك سليمان العلوي، وكان مقره بني زروال، وصاحب الحادثة هو ابن الشريف الدرقاوي. أنظر مسلم بن عبد القادر خاتمة أنيس الغريب والمسافر، تحقيق رابح بونار، ص: 71. محمد بن يوسف الزياني، دليل الحيران وأنيس السهران، ص: 108. شارل أندري جوليان، تاريخ إفريقيا الشمالية تعريب محمد منزالي، ص: 125.

(3) يقصد به الباي مصطفى منزالي، وهو الذي وقعت بينه و بين ابن الشريف معركة فرطاسة الشهيرة، وكان من حماة أبي راس، وهو الذي بنى له مدرسة بمعسكر. راجع:
Bulletin de la société, op.cit, P :3.

عسكرية عثمانية أخرى، وهذا من دهاء البايات آنذاك في تلك الفترة حتى يتسنى لهم جمع أكبر عدد من الأموال.

ويذكر صاحب دليل الحيران: "أن سبب قيام السيد عبد القادر بن الشريف...أنه لما ذهب إلى المغرب عند السيد محمد بن أحمد الدرقاوي، وأخذ عنه الذكر، قال له: "سيدي إنّ بوطننا قوما يقال لهم الترك، لا شيء لهم من دعائم الإسلام، ويظلمون الناس، ولا يعبؤون بالعلماء، والأولياء. نسأل منك أن يكون هلاكهم على يدي لتستريح منهم العباد. وتطهر منهم البلاد، فقال له: عليك بجهادهم وقتالهم. وإن الله ينصرك عليهم بكاملهم، فظنّ أنّ تلك القولة بمثابة النصرة، وأنه أدرك لا محالة فخره.

وهو ما أدّى به إلى مخالفة الشرع والمنطق، فأبتدع أمورا يمجها الطبع وينكرها الشرع، واقتدى به كثير من الناس وأخذوا عنه عامة، خصوصا أهل الصحراء".[1] فبقي هو وأصحابه ينتمون إلى التصوف والصلاح...، فدعا أهل الصحراء إلى البيعة كالأحرار[2] وغيرهم فأجابوه.

---

(1) يتبين لي أن أهل الصحراء هم أهل البادية إن صح التعبير، فإنهم يجيبون كل داعية يدعوهم إلى الجهاد باسم الدين والتضحية في سبيل الله وبحكم انعزالهم عن المدن وما يجري فيها من أحداث سياسية واقتصادية واجتماعية وثقافية خاصة إذا جاء أمر من عالم متصوف يدعي أشياء تنافي الشرع. محمد بن يوسف الزياني، دليل الحيران وأنيس السهران، ص: 208.

(2) قبيلة عربية بنواحي مدينة سعيدة معروفة بالشجاعة والشهامة وكان ولاؤها بمثابة تأييد واسع استغله الدرقاوي في مواجهته ضد لأتراك أي بنواحي جبل عمروش في معسكر. المصدر نفسه:208.

بعد أنّ استتب الأمر للشيخ العربي الدرقاوي، دعى أهل الصحراء لبيعته. فاستجابوا له. وأقام الدرقاوي يأمر، وينهى إلى أن سمع به الباي مصطفى منزالي، وأعدّله جيشا عظيما. وتلاقى الجمعان بفرطاسة، ودارت الحرب بينهما، وحمي الوطيس. فانهزم الباي وسبي من سبي، وأسر من أسر، وبقيت محلة الباي بما فيها غنيمة للدرقاوي.

وكان من خبر الباي محمد بن عثمان[*]، أنه لما قدم وهران، وجد الدرقاوي محاصرا لها من كل جانب ومكان، والناس في ضيق شديد كطول الحصار، وانقطاع الإمدادات البرية نظرا لاستيلاء الدرقاوي على المدينة وضواحيها، وتحكمه في المعابر، والمنافذ المؤدية إليها. فكان قدومه إليها بمثابة النجم الصاعد في السماء. و"صار الدرقاوي يعد جنوده كل يوم بفتح وهران، "[1]. ويحرّضهم على دخولها، وهدمها، وتخريبها.

(*) يقول مسلم بن عبد القادر عن الباي محمد بن عثمان الملقب بـ(أبو قابوس أو أبو كابوس) الذي تولى الحكم آخر عام 1223هـ: "... اشتغل في أيامه بقطع آثار الدرقاوي، حتى إن الرجل إذا أراد هلاك الرجل ينسب إليه ذلك، ومهما دخل أحد في يده منسوب إليه، إلا فعل به ما فعل، ولا يقبل فيه شفاعة شفيع وقد أبدع قتلا غير معروف عند الملوك"، مسلم بن عبد القادر، بايات وهران، ص: 97-98.

(1) محمد بن يوسف الزياني، دليل الحيران وأنيس السهران، المصدر السابق، ص: 212.

وبعد وصولهم لسيدي مبارك[1]، لقيتهم فرسان البرجية[2]، مع من انضم إليهم. فتعرضوا إليهم، وهم سائرون، وتكلم المدفع الرباني من سيدي مبارك. سمعه من كان غائبا، وشاهده خارجا من القبة من كان حاضرا. فنصرهم الله على درقاوة، وهزمهم هزيمة شنيعة، فكان يوما عظيما، جرح من جرح وأسر من أسر، وغنم الحاضرون منهم كالبرجية وبني شقران غنائم كبيرة. لم ير بعضهم بعدها رائحة الفقر أبدا. فلله در فرسان البرجية، ومن انضم إليهم، اشفوا الغليل، وأبردوا الغليل[3]. غير أن الدرقاوي لم يستسلم، ولم يرض بالهزيمة وراح يجمع جموعا كثيرة من قبائل الصحراء بموافقة بني عامر وأمجاهر[4]عام 1805م/1219هـ. وهكذا صارت الأمور بين مد وجزر إلى أن هزم الدرقاوي بفضل رجال المخزن[5]، الذين قتلوا خلقا كثيرا من أتباعه، وغنموا أموالا عظيمة.

---

(1) سيدي مبارك منطقة بنواحي المحمدية بمعسكر شرقا بإقليم وهران، وبها يوجد ضريح الولي الصالح والقطب الهمام سيدي مبارك.

(2) المصدر نفسه، ص: 213.

(3) محمد بن يوسف الزياني، دليل الحيران وأنيس السهران، ص: 214.

(4) عبد القادر المشرفي، بهجة الناظر في أخبار الداخلين من الأعراب مع الأسبان كبني عامر، المصدر السابق، الورقة: 8 و36.

(5) المخزن: هو الجيش الموالي للحكم العثماني، وكان هذا الجيش يتألف من خمسة أعراش جالية وهي: الدوائر، الزمالة، الغرابة ،البرجية والمكاحلية بنوع شداد في الحرب على عكس غيرهم من: الحشم، مجاهر، بني شقران، وبني عامر وهم أعراب ليست لهم جراة في الحروب. أنظر: دليل الحيران، المصدر السابق، ص: 218.

ولعل من أهم النتائج الأساسية لهذه الحوادث، هو مقدرة الباي محمد الكبير أن يقضي على هذه الأحداث الخطيرة.[1] التي جرّت البلاد إلى وابل من المأساة، والمعاناة المتعددة الجوانب. ليتفرغ إلى الحياة العلمية، وإصلاح شؤون الرعية، والسهر على مصالح العباد والبلاد. لقد كانت حالة البلاد في تلك الفترة تزداد سوءا بعد سوء بسبب التمردات والانقلابات. هذه الأحداث التي كانت تسود الإقليم الغربي على وجه الخصوص، والبلاد على وجه العموم. أي في ظرف اثنتي عشر سنة (1805-1817م/1219-1231هـ)، اعتلى عرش البلاد خمسة باشاوات قتل منهم أربعة، ومات واحد منهم موتا طبيعيا[2].

وقد تعرض إلى هذا الموضوع كثير من المؤرخين الأجانب على حد قول المهدي البوعبدلي إلى هذه الفترة، وهم متفقون مع الكاتبين: "محمد بن يوسف الزياني، وحمدان خوجه". ويذكرون لذلك أسبابا بغاية الوضوح والتفصيل، ولنقتصر على ما قاله واحد منهم وهو "كاط"[3] E.cat" حينما قال: "...عندما اندلعت ثورة فرنسا

(1) كانت نهاية الدرقاوي على يد الباي محمد الكبير سنة 1817م. انظر: أحمد بن هطال التلمساني، رحلة محمد الكبير باي الغرب الجزائري إلى الجنوب الصحراوي، تحقيق محمد بن عبد الكريم، مطبعة محمد، القاهرة، ط1- 1969.

(2) Bulletin de la société, op.cit.p15.

(3) كاط: أستاذ مدرسة الآداب بالجزائر، ألف كتابا سماه: التآليف الصغير للجزائر والمغرب وتونس (Petite histoire de l'Algérie) طبعه أدولف جوردان بالجزائر سنة1891 . Ibid. p 15

عام 1789م، امتنع الباشا حسن أن ينضم إلى أعداء الثورة لعلاقاته الحسنة مع فرنسا، رغم تدخلات انكلترا وإغراءاتها[1].

أما صاحب دليل الحيران فإنّه يحمّل بايات وهران مسؤولية تصرفاتهم. ويرى بأنهم بالغوا في الظلم، والتعدي على الشعب الجزائري. وهذا ما نلحظه جليا بالإيالة الغربية تحديدا. حيث نجدهم فتحوا باب الارتشاء والوشايات والانتقامات الشخصية على مصرعيه.

إضافة إلى أعمال البايات في الأمصار، الذين كانوا يجمعون الضرائب المجحفة، التي كانوا يفرضونها على الرعية بما لا تطيق. كما عاصر أبو راس الناصر أحداثا كثيرة طيلة ست وثمانين عاما من حياته تبتدئ عام 1737م وتنتهي عام 1823م أي ست سنوات قبل الاحتلال الفرنسي، منها حملة "أوريقي"[2]. وحملة "اللورد اكسموت"[3] الأوروبيين على الجزائر، وفتح وهران.

---

(1) لقد أنقذها من شبح المجاعة التي كانت تهددها فسهل لها شراء القمح، وأقرضها خمسة ملايين فرنك من دون فائض ... كما وقع عزل كثير من البايات -ثم تبعتها- إجراءات استثنائية ضد القناصل الأوربيين. فغصبت أموالهم، وأهين كثير منهم ومن هؤلاء قناصل انكلترا، والسويد، والدانمارك، فقد عوملوا بإهانة وقسوة، بخلاف قنصل فرنسا، فإنه كان محاطا بالتجلة والتقدير"ينظر: Ibid ; p: 15 .

(2) حملة أوريقي: كانت هذه الحملة عام 1775م، قام بها الأسبان وجهزوها في قادس، قرطاجنة، بوشلونة، وتألفت من 400 سفينة. راجع:

Saint James, Degarmment, Relation entre la France et régence d Alger au xvii siècle, et Garrot Henri, histoire générale Alger, 1910, P 1189.

(3) حملة اللورد أكسموت: كانت هذه الحملة بأمر من الملك الإنجليزي.Ibid, p 1189

كما عاصر أبو راس كذلك الثورة الفرنسية[1]، وظهور الدعوة الوهابية[2] التي انتقد علماءها الذين لقيهم بمكة عام 1811م. وكذا الحملة الفرنسية في مصر، التي أبدى بعض ملاحظاته حول آثارها على مصر والشام في كتابه "الحلل السندسية في فتح وهران والجزيرة الأندلسية"، خاصة إذا علمنا أن أبا راس ألّف كتبا عن أخبار ملوك الترك، والروم[3]، وملوك فرنسا[4]، وتحدث في مؤلفاته عن نابليون، وعن الفرنسيين، والانجليز، والهولنديين[5].

وما تجدر الإشارة إليه هو أن أبا راس من الناحية السياسية ينتمى إلى جماعة العلماء الذين دعموا النظام العثماني، وسلطانه بالجزائر. ويتجلى موقفه هذا، خاصة بعدما رثى الباي بوكابوس بعد موته بمرثية أوردها في رحلته المعنونة: "فتح الإله ومنته في التحدث بفضل ربي ومنته"، ثم الباي محمد الكبير الذي أهداه قصيدة "نفسية الجمان في فتح ثغور وهران". إذن هذا الموقف صادر من

---

(1) الثورة الفرنسية: كانت هذه الثورة عام 1789م. راجع:
Saint James, Degarmment Relation entre la France et régence d'Algérie au xvii siècle, p 225

(2) قد أفرد لها الشيخ أبو راس تأليفا خاصا بها سماه: "منحة الوهاب في ذهابي و ما وقع لي بمكة مع الوهابي "راجع يحي بوعزيز، أعلام الفكر والثقافة في الجزائر المحروسة، ص:243

(3) من بين هذه المؤلفات نذكر: درء الشقاوة في حروب الترك مع درقاوة، المسك المروم في أخبار الترك والروم، مخطوط موجود بمكتبة الشيخ المهدي البوعبدلي.

(4) من بين هذه المؤلفات نذكر: تحفة النفسا في أخبار فرنسا، أقوال التأسيس عما وقع أو سيقع من الفرنسيين.

(5) مولاي بلحميسي، محاضرات ألقيت بملتقى أبي راس الناصر بمعسكر،بتاريخ: 28/27 –10-1998م معسكر، ص: 05.

اعتبارات العصر نفسها[•]. فأبو راس عاش فقيرا يتيما محتاجا يعرف معنى حقيقة العيش، قبل أن يعيش مقربا من البايات، ورعايتهم له رافضا للهجرة. لكن في الوقت نفسه كان خائفا من تلك المضايقات التي دفعت أمثاله إلى الهجرة[1].

3) الحملات الصليبية على وهران

لقد وعت الجزائر مدى خطورة الأبعاد الحقيقية للحملات الأوربية الصليبية ضدها. ولذلك صمّم شعبها وقيادتها، على تصفية الوجود الاسباني في البلاد. بمختلف الوسائل، وبأي ثمن مهما كان غاليا. ومن هنا كانت قضية تحرير وهران، والمرسى الكبير، وطرد الإسبان من الاهتمامات الكبرى للجزائر[2]. ولكن ظروف السلطة العثمانية بالجزائر العاصمة لم تسمح، ولم تكن إمكانيات الأهالي وحدها كافية لطردهم. وعندما حقق الداي الحاج مصطفى انتصاره على سلطان المغرب الأقصى مولاي إسماعيل

(•) الطيبي محمد، العصر والعصارة، ص: 09.

(1) قضية الهجرة هي التي أشرت إليها في "قضية النسب"، فأبو راس عند ذكره لطبقة من الأشراف وعلى أنهم شريفي النسب دون طبقة أخرى، كان هذا بمثابة زلزال أصاب هؤلاء القوم وعلى أنه طعن في شرفهم ونسبهم، واستدلت على ذلك بما رواه لي الأستاذ جيلالي جلول، حينما حاورته في هذه القضية فذكر لي ذلك بإيجاز شديد، خوفا من إثارة الفتنة من جديد. وأنني لن اسلم منهم حيا أو ميتا، واكتفى بذكر أن ابا راس عند تأليفه لكتاب النسب: "مروج الذهب في نبذة النسب ومن غلى الشرف انتهى وذهب". أخذه تلميذه. ووضعه في قدر من الماء وغلاه. لتبدأ مضايقات أبي راس في حياته ومن بعد مماته غير أن ابا راس أعاد كتابته.

(2) يحي بوعزيز، علاقات الجزائر الخارجية مع دول ومماليك أوربا 1500-1830م،ديوان المطبوعات الجامعية، الجزائر، (د ت)، ص:20.

في جديوية وطارده إلى فاس. اهتم بأمر بايلك الغرب وعين عليه مصطفى بوشلاغم المشار إليه سابقا.

فأخذ يستعد لتصفية الإسبان بالإقليم الغربي، وعندما أصبح محمد بكداش دايا بالعاصمة، أمده بقوات كبيرة بقيادة صهره أوزن حسن، وشدّد الحصار على وهران حتى أجلى الإسبان منها. ومن المرسى الكبير عام1708م/1101هـ، وأسر ما يقرب من ألفين من الإسبان، فعمّت الفرحة بذلك كامل البلد؛ غير أن الاسبانيين أعادوا الكرة، فأعدوا حملة استغرقوا في تجهيزها قرابة الثلاث سنوات[1]. واستردوها في نوفمبر عام 1732م/ 1197هـ، وتأثر الداي من جراء هذه الهزيمة حتى توفي بعدها في العام الموالي.

لم يستطع بوشلاغم من مواصلة هجوماته على الاسبان، وإرغامهم على الانسحاب. بسبب عدم وجود قوات كافية تدرأ هذا الخطر الجسيم.فقرر التراجع والانسحاب إلى مستغانم لمواصلة المقاومة، بعدها تأكد الإسبان أن وجود العثمانيين في عاصمة الجزائر، يشكل خطرا دائما يهدد وجودهم هناك، فأخذوا يسعون بكل الطرق، والوسائل لاحتلال الجزائر ليضعوا حدا لهذه الأخطار. فقام كارلوس الثالث الاسباني بشن ثلاث حملات على عاصمة

---

(1) يحي بوعزيز، الموجز في تاريخ الجزائر، ديوان المطبوعات الجامعية، الجزائر، ط1999، ص:297.

الجزائـــر، فـــي أعـــوام(1775م/1200)، (1783م/1784م) فشـــلت كلها، واضطرت اسبانيا في الحملة الأخيرة أن ترضـــخ لشـــروط الجزائر، دون قيد أو شرط[1].

وهذا ما دفع بـــأبي راس أن يعـــيش عصـــره، ويتفاعـــل مـــع مستجدات زمانه تفاعلا منتجا. ولا جرم أن هذا الوضع السياســـي المضطرب كان مرحلة تمهيدية للوضع الاجتماعي، والاقتصـــادي آنذاك، وعلى وجه الخصـــوص المرحلـــة الأخيـــرة مـــن العهـــد العثماني، التي تعتبر أصعب المراحل التي مرّ بها النظام العثمـــاني بالجزائر.

ب) الأحوال الاجتماعية والاقتصادية

إنّ الفتـــرة الممتـــدة مـــا بـــين (1155-1238هـ/1737-1823م) من الناحية الاجتماعية والاقتصادية جد مضطربة باضطراب النظام السياسي، وهو ما أدّى إلى ســـوء الأحـــوال الاجتماعيـــة، وتـــدّني المستوى المعيشي للمجتمع المعسكري بمختلف طبقاته بسبب انتشار الأوبئة والأمراض الفتاكة كالطاعون الـــذي أودى بحيـــاة الكثيـــر من السكان، على اختلاف فئاتهم. من بينهم العلماء كالشـــيخ أبـــي راس الناصر الذي كان ضحية هذا الوباء. إلـــى جانـــب انتشـــار

(1) يحي بوعزيز، الموجز في تاريخ الجزائر، ص:297

الفقر، والمجاعة التي كان لهما الأثر الكبير في زيادة معاناة المجتمع في معسكر.

كما كان لغلاء الأسعار تأثيرا كبيرا على الحياة الاقتصادية وعلى المجتمع والمنطقة معا. فكانت مداخيل اقتصاد الدولة العثمانية من معسكر جد ضعيفا بعدما كان مزدهرا قبل ذلك.

الأحوال الاجتماعية

لقد كانت مرحلة الدايات آخر مرحلة في العهد العثماني، بها تنطفئ شموع العثمانيين الذين تعاقبوا على حكم الجزائر عامة وتسيير شؤون مقاطعة الغرب آنذاك، والذي كان مركزه معسكر؛ ومما ذكرناه آنفا يتجلى لدى الباحث والدارس لتاريخ فترة الجزائر العثمانية. إن هذه المرحلة مرحلة اضطرابات، وتمردات، وانتفاضات عادة ما كان يقودها رجال الطرق الصوفية، والزوايا.

بالإضافة إلى الظلم والتعدي، الذي كان يمارسه العثمانيون على أبناء جلدتنا، وانتشار ظاهرة الرشوة والوشايات الكاذبة والانتقامات الشخصية. لقد كانت مرحلة جد متداخلة يصعب على المؤرخين تداولها، وتناولها من جانب واحد، ولا بأس أن نعطي لمحة وجيزة عن المجتمع في تلك الفترة.

فئات المجتمع المعسكري

لقد كانت المدن تمثل مركز إشعاع للحياة الاجتماعيـة، والثـروة الحقيقية. فالتّجار والصناع كانوا يعملون جنبا إلى جنب مع الطبقـة الحضرية السائدة التي كان لها تأثير قوي من حيث العـدد؛ وهـي تراقب أحواز المدن الكبرى مثل معسكر التي كان الأعيان التابعون للمخزن يملكون غالبية الأراضي فيها.

لقد كان في معسكر حوالي 812 منزلا. أي بمعدل مسكن لعشـرة أو اثنا عشر شخصا. فإن الوضع الاجتماعي في معسـكر، بصـفة خاصة وبالجزائر بصفة عامة، كان يتصف بتمايز السكان. وهـذا بطبيعة الحال حسب نمط معيشتهم، وأساليب حيـاتهم، واخـتلاف مصادر رزقهم، وطبيعة علاقـتهم بالحكـام. وهـذا مـا يسـاعد على تصنيفهم إلى عدة طوائف وجماعات[1].

فسكان مدينة معسكر مثلا: كانوا يتشكلون من عـدة مجموعـات حرفية، وفئات سكانية مختلفة مثل جماعة الكراغلة، وطبقة الحضر بما فيها الأندلسيين والأشراف، ثم تأتي بعدها جماعات البرانيـة أو الدخلاء التي تضم الوافدين إلى المدن من مختلف الجهات وتشـتمل اليهود والنصارى. أما سكان الأريـاف فهـم بـدورهم ينقسـمون

(1) ناصر الدين سعيدوني، الجزائر في التاريخ (العهد العثماني) المؤسسة الوطنية للكتاب، ط1984، ص: 87.

إلى متعاملين مع السلطة الحاكمة وهم عشائر المخزن، وخاضعين لرجال البايلك وهم قبائل الرعية، وإلى متحالفين أو ممتنعين عن نفوذ البايلك، وهم بقية السكان القاطنين في المناطق الجبلية أو النائية من الإيالة الجزائرية وعلى الخصوص الإيالة الغربية[1].

وقبل الحديث عن كل طائفة على حدة، واستخلاص خصائص ومميزات الوضع الاجتماعي. وتجدر بنا الإشارة إلى التعرف عن الحالة الصحية لسكان معسكر المتواجدين بالأرياف وبالمدينة نفسها ونقصد بذلك الشيخ أبو راس الناصر. وذلك لوجود علاقة ترابط وتجاذب بين الوضع الاجتماعي للسكان والحالة الصحية والديمغرافية لهم أيضا، وهذا عامل أساسي في دراسات حالة مهمة تعد مدخلا أساسيا في مجال الدراسات السكانية.

الحالة الصحية لسكان معسكر

لقد كان الحالة الصحية بمعسكر تزداد سوءا وتدهورا خصوصا في أواخر العهد العثماني، مما كان له تأثير سلبي على نمو السكان وعلى وضعيتهم الاجتماعية. فتضاءل سكان المدينة وتناقص سكان الأرياف المحيطة بها، ابتداء من أواخر القرن الثامن عشر (18م). كما تسبب في ضعف قوة الأوجاق وتناقص عدد البحارة

(1) ناصر الدين سعيدوني، الجزائر في التاريخ، ص:87.

وقدرات الحرفيين والصناع، وافتقار الأرياف إلى اليد العاملة الزراعية[1].

ويعود سبب ذلك إلى انتقال العدوى، وانتشار الأمراض من الأقطار المجاورة. وذلك لصلة الجزائر بعالم البحر المتوسط، وانفتاحها على أقاليم السودان، وعلاقتها بالبلاد الأوروبية، وارتباطها بالمشرق العربي.

وكانت أهم الطرق لانتقالها توافد التجار والبحارة والحجاج والطلبة من أقطار الشرق الأوسط إلى الموانئ الجزائرية[2]. ومما ساعد على توطن هذه الأمراض الموسمية والأوبئة المعدية، انتشار المستنقعات بالسهول الساحلية[3].

ومما زاد في سوء الحالة الصحية، أن الحكام كانوا لا يهتمون بأمور الصحة، ولا يولونها العناية اللائقة بها. فهم لم يتخذوا أي إجراء وقائي ضد الأمراض الفتاكة. بل اعتبروها طبيعة، وغضبا إلاهيا، ومن هنا نجد تخوف الباي عثمان حاكم وهران عام

---

(1) ناصر الدين سعيدوني، الجزائر في العهد العثماني، ص: 87.

(1) Ray Maud (P), Marche et origine des marche épidémies du nord de L'Afrique, In .Congres médical du Caire P: 12.

Berbrugger (A), Un mémoire sur la peste en Algérie depuis 1552 Jusqu'en1819. ImExploration scientifique de L'Algérie, Paris Im2eme Congres des scietes savant Alger, 1930, P: 14

(2) Marcil. La Régence D'Alger vue par un Allemand, du xviii Siècle, In 2 ème Congrès des sociétés savantes Alger 1930p14.

1794م/1208هـ، من انتشار الوباء بناحية وهران، والتجائه إلى سهول مليتة ليقيم بها ثلاثة أشهر، بعيدا عن أي اتصال بالسكان[1].

وقد عرفت الإيالة الغربية، وعلى وجه الخصوص معسكر، وباءا سنة 1794م/1208 هـ، والذي أضر كذلك بجميع الجهات. ومما يضاف إلى سوء الأحوال الصحية، حدوث الكوارث الطبيعية، التي أدت بدورها إلى تناقص السكان وتضرر الاقتصاد. وتتقل هذه الآفات والكوارث الطبيعية كالجفاف والزلازل، والجراد، والفيضانات، وغيرها.

فقد عرفت الإيالة الغربية على وجه الخصوص والسلطنة العثمانية على وجه العموم هزات أرضية عنيفة تسببت في تخريب بعض المدن[2]، ونتجت عنها في كثير من الأحيان خسائر في الأرواح والممتلكات، منها زلزال وهران عام 1790م/1204[3]، والذي ساعد على استرجاع وهران والمرسى الكبير من أيدي الإسبان.

---

(1) ناصر الدين سعيدوني، الجزائر في العهد العثماني، ص: 88.

(2) MELKI NORDINE Archives Historique National de MADRID-le tremblement de Terre d'Oran, Octobre 1790 et les tentatives du Bey de Mascara pour la libération de la ville d'Alger 1984; N10, 11, pp296:307. L'Abbé Burzet, Histoire des désastres de l'Algérie, pp, 35, 38.

(3) ناصر الدين سعيدوني، الأحوال الصحية والوضع الديمغرافي بالجزائر أثناء العهد التركي بالجزائر، ط 1986، ع92، ص: 104

إلى جانب الزلازل عرفت الإيالة الغربية عدة مجاعات، ذكرت بعض المصادر منها أن الناس كانوا يموتون أثناءها بأعداد لا تحصى، والتي تزامنت مع ثورات درقاوة. أما في الوضع الديمغرافي للسكان وبالرجوع إلى كثير من الإحصائيات، نستنتج أنه كان يتصف بعدم الاستقرار من حيث عدد السكان أو كثافتهم، كذلك تبعا للظروف الصحية والأحوال المعيشية والشروط الطبيعية[1]. وهو ما كان عاملا أساسيا في تكوين شخصية أبي راس.

فئات المجتمع المعسكري

إن دراسة أوضاع المجتمع من عادات وتقاليد، والتعرف على أحوال السكان مرتبط أساسا بتناول الطوائف والأقليات، أو فئات المجتمع المعسكري على وجه الخصوص. والتي تفيدنا في معرفة الحالة الاجتماعية، والاقتصادية التي كان عليها سكان المنطقة آنذاك وعلاقتها بأبي راس الناصر.

وتفحص كل من الوضعية الاجتماعية، والنشاط الاقتصادي لكل طائفة أو فئة منها وعلاقتها بالدولة، من شأنه تقريب الفهم الصحيح للباحث. حول واقع الحياة الاجتماعية والجوانب الاقتصادية التي

(1) ناصر الدين سعيدوني، الجزائر في العهد العثماني، ص: 91.

كانت عليها الدولة العثمانية عموما في أواخر أيامها. وتأثيرها على التحصيل المعرفي لأبي راس الناصر. ومن أهم هذه الأقليات التي كانت معروفة بمعسكر، كسائر المدن الجزائرية في ذلك العهد: الأقلية التركية، وجماعة الكراغلة، وطبقة الحضر، وجماعة البرانية، والدخلاء؛ وحتى يتسنى للباحث فهمه أكثر لهذه الأقليات، لابد من إشارة خفيفة إليها.

1- الأقلية التركية

تعتبر أول فئة يتشكل منها المجتمع المعسكري هي فئة العثمانيين التي تتألف في معظمها من الجنود العثمانيين. وهم المعروفون باسم: "الإنكشارية" الذين كانوا يستقرون في حصون وثكنات، أو يتوزعون على حاميات المدن[1] من بينهم معسكر. هذا وعليه، فقد ظلت الأقلية التركية محدودة العدد لا يتجاوز عدد أفرادها أواخر القرن السادس عشر (16م) العشرة آلاف، ولم يزد في الربع الأول من القرن السابع عشر عن اثني عشر ألفا، وظل هذا العدد ثابتا تقريبا حتى أوائل القرن التاسع عشر.

وتتمتع هذه الفئة بامتيازات كبيرة، وتوفر كتابا لإدارة الحكومة العثمانية؛ ورغم المدة التي قضاها العثمانيون بالجزائر، فإن تأثيرهم

(1) ناصر الدين سعيدوني، النظام المالي في العهد العثماني، المرجع السابق، ص: 92.

لم يتعد الأنظمة الإدارية ولم يتجاوز الألقاب العسكرية[1]. إنّ تعامل الشيخ أبو راس الناصر مع فئة العثمانيين، كان تعاملا وثيقا خصوصا، وأنّه كان مواليا لهم، بسبب منح السلطة العثمانية له منصبا للقضاء والإفتاء، رغم ما مني به الشيخ من اتهامات في ضلوعه فتنة درقاوة السالفة الذكر، ومن ثم عزله من منصبه.

2- فئة الكراغلة

من بين طبقات المجتمع المعسكري طبقة الكراغلة. حيث تحتل هذه المجموعة السكانية المرتبة الثانية في السلم الاجتماعي التي تكونت نتيجة التزاوج بين الجند الانكشاري ونساء البلاد، وظهرت لأول مرة في المدن التي تقيم بها الحاميات التركية وبالأخص في مدينة معسكر -قلعة بني راشد- ومدن أخرى[2].

وأصبحوا يشكلون فيما بعد شبه حكومة خاصة بهم. ويتقاسمون المدينة مع طبقة الحضر، ولهم ديوان خاص بهم، وصلاحيات معترف بها. حيث زادت صلتهم بالعثمانيين، وعلاقتهم الخاصة بالأهالي. فاستطاعوا بعد فترة وجيزة من الوجود العثماني

---

(1) Boyer. (P), Le problème kouloughli dans régence d'Alger. N: Spécial, 1970, P:87.

(2) الجزائر، مستغانم، مازونة، مليانة، المدية، البليدة، القليعة، بسكرة، قسنطينة، عنابة. أنظر: الجزائر في العهد العثماني، ناصر الدين سعيدوني، النظام المالي في العهد العثماني، ص: 94.

بالجزائر، من أن يشكلوا طبقة وسطى متوسطة الحال. لها نشاطها التجاري الخاص بها، وتشتغل ببعض المهن، وتستثمر الملكيات الزراعية. وفي بعض الأحيان تقوم بوظائف إدارية متوسطة الأهمية(1).

وعلى كل فإن العلاقة بين العثمانيين، والكراغلة ظلت متوترة ومضطربة لمدة خمسة عشر سنة (15)، حيث أبعدوا عن كل وظيفة حساسة في جهاز الدولة. لمدة نصف قرن إلى غاية إحداث القطيعة بين العنصرين. لقد لجأبعض الحكام إلى وضع حد لهذا العداء، وإزالة هذه القطيعة لكن دون جدوى.

وقد ذكر بن مسلم عبد القادر (2)، ما يؤكد توتر العلاقة بين الكراغلة والسكان.عندما ذكر أن باي الغرب الجزائري محمد بن عثمان الكبير، ذهب إلى تلمسان عام 1805م، وآخى بين العرب، والكراغلة وأوصاهم ببعضهم البعض.

وقد كانوا في ضيق من الحال، وعدم القوت، والمال. بسبب تفشي القتل بينهم وبين عرب البلد. وتظهر معاملة أبي راس مع هذه الفئة من خلال توسطه في بعض القضايا المختلفة بين

(1) ناصر الدين سعيدوني، الجزائر في العهد العثماني، ص: 95.
(2) مسلم بن عبد القادر، أنيس الغريب والمسافر، ص: 48.

الكراغلة، وبين عرب المنطقة، وفظّه لبعض النزاعات التي كان يصعب حلها.

3- فئة الحضر

تتألف هذه الطبقة من مجموعة سكانية قاطنة بالمدن، والتي ترجع أصولها إلى الفترة الإسلامية وما انضم إليها من أندلسيين وأشراف. وقد تميز الحضر بعاداتهم وتقاليدهم الخاصة، وبوضعهم الاجتماعي المميز، مما جعلهم يشكلون طبقة اجتماعية ميسورة، حيث يشتغل أفرادها بالمهن الصناعية المختلفة، ويتولون وظائف السلك القضائي، والتعليمي. وقد ظهر في هذه الطبقة صناع مهرة، وتجار نشيطون، وبحارة مغامرون، وفقهاء وعلماء بارزون ومتمكنون.

لقد اهتم أفراد هذه الطبقة بتنمية ثرواتهم، واستغلال أملاكهم أحسن استغلال، واستثمار مزارعهم الواقعة بالقرب من المدن. وهذا ما جعلهم يؤلفون أعلى الطبقات في المدن الصغيرة، التي عرفت بخضوعها للبايلك، وقلة اهتمامها بأمور السياسة، وشؤون الحكم[1]. فرغم سيطرتهم على الحياة الاقتصادية طيلة القرن السادس والسابع عشر، إلا أنهم لم تكن لهم يد مؤثرة في نظام الحكم،غير أنهم يكونوا حازمين في بعض الأحيان.

---

(1) ناصر الدين سعيدوني، النظام المالي في العهد العثماني، ص: 97.

وكانت الهجرة الأندلسية عام 798هـ/1492م عامل أساسي في إنعاش الاقتصاد وازدهاره، وتطور العمران واتساعه بعد استقرارهم ببلاد المغرب. وخاصة الجهة الغربية من البلاد الجزائرية. حيث ظهرت مدن اعتبرت حواضر إسلامية مثل: معسكر التي كانت عاصمة البايلك الغربي قبل أن تتحول إلى وهران فيما بعد.

ورغم اعتبار الأندلسيين أنفسهم أنهم في دار هجرة مؤقتة، يترقبون الوقت الذي يتمكنون فيه من العودة إلى مواطنهم الأصلية، إلا أن تأثير العنصر الأندلسي في مجتمع المدن كان عميقا جدا. فقد طوروا المهن والأشغال المختلفة، وأفرغوا كل ما جلبوه معهم من الأندلس في المجتمع الجزائري ليكتسي بذلك طابعا اجتماعيا. كما قاموا باستصلاح الأراضي الزراعية، وأنشأوا السواقي وجلبوا المياه إلى المدن، وساعدوا في شيوع اللغة العربية في الجهات التي ظلت تستعمل لهجاتها المحلية[1].

أمّا فيما يخصّ جماعة الأشراف فهي فئة قليلة العدد، تنتسب إلى آل البيت حسب تقاليدهم المتعارف عليها، وهم أهل ورع وتقوى. ونظرا لمكانتهم الدينية بين باقي الحضر، حضوا

(1) ناصر الدين سعيدوني، النظام المالي في العهد العثماني، ص: 97.

باحترام وتقدير كبيرين، فخصّهم بعض الدايات بالعطايا والمساعدات، مثل الداي محمد بقطاش الذي أوقف لصالحهم بعض الأملاك[1].

بما أنّ أبا راس كان واحدا من أفراد المجتمع المعسكري. فإنه يحس بما يحسون به، ويتأثر بما يتأثرون به، وكانت معاملته تجاههم وثيقة جدا وتتمثل في إعطاء بعض تآليفه لفئة الحرفيين كي ينسخونها.[2] كما أنّ مدة ست وثلاثين عاما[3] التي قضاها بمعسكر كفيلة بالتعرف على حال المدينة وما يتعلق بها من أحداث.

4- فئة اليهود والنصارى

هي إحدى العناصر المشكلة للمجتمع السكاني بمعسكر. والتي يطلق عليها اسم البرانية الذين اعتنقوا الدين الإسلامي. هذا وقد أكسب هؤلاء في معسكر وغيرها من المدن الأخرى عادات وتقاليد الأهالي، واتخذوا اللغة العربية كأداة تعبير في معاملاتهم اليومية وطقوسهم الدينية، وحتى في معاملاتهم التجارية في البحر الأبيض المتوسط، التي كانت تفوق إمكانية حكام الجزائر[4].

---

(1) المرجع نفسه، ص: 99.

(2) هذه الفئة هي الفئة التي تصنع السروج، ومكانها موجود حاليا بمكان يدعى "الركابة" وهو مصطلح حديث ظهر مع الوجود الفرنسي بالمنطقة. وسبب منحه لتآليفه لهذه الفئة هو رداءة خطه، وكان يعطيهم مقابل ذلك مبلغا من المال. جيلالي جلول، باحث في التاريخ، استجواب يوم: 2002/06/11، معسكر.

(3) تعد هذه المدة بالنسبة للشيخ أبي راس فترة تدريسه بمعسكر، وهي التي أشرنا إليها في حياته العلمية.

(4) ناصر الدين السعيدوني، الجزائر في تونس: مدينة كبيرة محدثة بإفريقية على ساحل بحر الروم، عمرت من أنقاض مدينة كبيرة قديمة بالقرب منها مدينة يقال لها طنجة، وكان اسم تونس في القديم ترشيش وهي

ومما ساعد هذه الفئة على الاندماج في الحياة العامة بمعسكر وغيرها، هو ثقة الحكام العثمانيين فيهم وتفضيل الأندلسيين التعامل معهم نظرا لكون غالبية اليهود ذوي أصول أندلسية ويتشابهون في نمط العيش والحياة معهم. وأغلب ما بقى يميز هؤلاء الأهالي عن اليهود هو ارتداء الآخرين لملابس قاتمة اللون وامتناعهم ركوب الخيل وحمل السلاح، والتزامهم دفع الجزية. ولقد كان اليهود في صراع مستمر من طرف الأهالي. وهذا ما جعلهم يهاجرون، ويكونون في اتصال دائم بالأجانب والتعاون معهم، خاصة إلى تونس[1] وليفرون[2]. وقد كانت علاقة أبي راس بهذه الفئة واضحا، من خلال تعامله معهم فيما يتعلق بالعقود والمواثيق.

كما لا ننسى أيضا فئة النصارى التي كانت لها هي الأخرى أوضاعها الخاصة بها، فكانت الروابط الثقافية والاجتماعية مبنية على أساس التعاون والاحترام بين الأطراف. فقد كانت الإيالة التركية شبيهة بالإمارة العثمانية الأولى، غير أن الفارق الأساسي

=على بعد ميلين من قرطا جنة، أنظر ياقوت الحموي، معجم البلدان، دار صادر بيروت لبنان، ط1984، ج2، ص: 60 العهد العثماني، ص: 84.

(1) تونس: مدينة كبيرة محدثة بإفريقية على ساحل بحر الروم، عمرت من أنقاض مدينة كبيرة قديمة بالقرب منها مدينة يقال لها طنجة، وكان اسم تونس في القديم ترشيش وهي على بعد ميلين من قرطا جنة، أنظر ياقوت الحموي، معجم البلدان، دار صادر بيروت لبنان، ط1984، ج2، ص: 60

(2) ليفرون: منطقة ساحلية إيطالية لها ميناء كان يستعمله اليهود لممارسة التجارة أي مجال حيوي اقتصادي خصب.انظر الموسوعة الجغرافية العربية، ج16،ص:243

بينهما كان يتمثل في أن العثمانيين الأوائل كانوا يهتمون بتأسيس دولة فردية وسط المجموعة الإسلامية في حين أن الجزائريين كانوا يشكلون حصنا إسلاميا منيعا في وجه العالم النصراني المعادي.

إلى جانب الفئتين السابقتين هناك عناصر أجنبية عن المجتمع المعسكري الجزائري، مثل التجار الأجانب، والقناصل الأوروبيين، ورجال الحملات التبشيرية، والبعثات الدينية، وكان عددهم بين زيادة ونقصان، ومع تجدد النشاط البحري الجزائري، في غضون أواخر القرن الثامن عشر وأوائل القرن التاسع عشر، وإثر الهجوم الذي شنه اللورد إكسموت Exmoth(1866م) (•)، اضطرت حكومة الداي إلى 1642 أسيرا.

لكنّ رغم كل هذا كان ينظر إلى هذه الفئة على أنّها من أهل الذمة. لها حقوق وواجبات أقرها الإسلام. وبما أنّ أبا راس كان عالما وقاضيا في نفس الوقت، كانت تلجأ إليه هذه الفئة ليستحكمونه فيما ينشب بينهم من خلافات اجتماعية، ويستفتونه في قضايا دينية مختلفة:كالقضاء، الزواج، البيع والشراء[1].

(•) ناصر الدين سعيدوني، النظام المالي بالجزائر في أواخر العهد العثماني (1792-1830م) المؤسسة الوطنية للكتاب الجزائري، ط2- 1985م، ص: 46.

(1) أنظر: أبو راس الناصر، الخبر المعرب عن الأمر المغرب الحال بالأندلس وثغور المغرب، مخطوط المكتبة الوطنية الجزائرية، الجزائر، رقم: 3182، ص: 112.

لقد كان لهذه العوامل السالفة الذكر، الأثر الكبير في تكوين شخصية أبي راس الناصر المعسكري. الذي كان دائما في أخذ ورد في حياته اليومية المليئة في غالبيتها بالغبن ومشقة الحياة وصعوبة العيش فيها، مما كانت له حافزا مهما في التغلب عليها رغم ما عانه من تدهور الأوضاع الاجتماعية في عهده.

الجوانب الاقتصادية

عرف النشاط الاقتصادي الجزائري في العهد العثماني تطورا ملحوظا نوعا ما، رغم تدهور الأوضاع الاجتماعية بالجزائر عموما وبالإيالة الغربية خصوصا. ورغم الاضطرابات السياسية والفتن الداخلية التي تقوم بإثارتها بعض طرق الزوايا آنذاك. وتجدر الإشارة إلى التعرض إلى أهم ميزات تلك الفترة الممتدة مابين(1155-1238هـ/1737-1823م) ومدى نموه من خلال استعراض الباحث لمختلف المنتوجات الزراعية، والحرف الصناعية والمهن اليدوية والمبادلات التجارية، وعلاقتها بأبي راس الناصر، ومدى تأثيرها على شخصيته.

ومما لا شك فيه أن فترة التدهور الاقتصادي التي عرفتها البلاد الجزائرية أثناء القرنين الرابع والخمس عشر عموما. وفي معسكر خصوصا. قد خربت أثناءها عدة مدن، وأفقرت أرياف. ولذا وجب النهوض بهذا النشاط من جديد ومحاولة إعطائه صبغة

مميزة؛ ولكن مع مطلع القـرن السـادس عشـر والنصـف الأول من السابع عشر، تحسنت أوضاع البلاد الجزائرية. فكثر الإنتـاج الفلاحي، وتعددت المصنوعات المحلية، ونشطت التجارة. مما كان له انعكاس واضح على معسكر، وعلى أبي راس نفسه.

وقد ساعد على التطور الاقتصادي، والازدهار العمراني، قـدوم وفود كبيرة من مهاجري الأندلس، واستقرارهم بالجهات السـاحلية خصوصا بالجهات الغربية. بحكم الجـوار، والموقـع الجغرافـي إلى جانب العادات، والتقاليد. وقد ساعد هذا على احتكاك أبي راس الناصر بمحيطه الاجتماعي والاقتصادي. مـن هنـا أراد الباحـث التطرق إلى أهم الأنشطة الاقتصادية التي كان لها تأثيرا واضـحا على أبي راس.

فقد كانت الزراعة النشاط الرئيسي الذي يعتمده الناس فـي هـذه الفترة –العهد العثماني- "بحيث تحكمت فيها طبيعة الملكية وكيفيـة استعمال الأرض، إلى جانب تـأثير بعـض الظـروف والعوامـل المختلفة فيها، حيث "كانت ملكيـات خاصـة، وكـان يسـتخدمها أصحابها مباشرة[1]. ولا يستوجب عليهم من الدولة سوى فريضـتا العشر والزكاة. وكانت تتصف بعدم الاستقرار وبصـغر المسـاحة نظرا لخضوعها لأحكام الوراثة والبيع والشراء"[2].

---

(1) ناصر الدين سعيدوني، العهد العثماني، ص: 51.
(2) المرجع نفسه، ص:51.

ومما لا شك فيه أن هذا النشاط -الزراعة- عرف ركودا كبيرا، يرجع أساسا إلى ظروف صعبة. عايشها الفلاح في الفترة الأخيرة من العهد العثماني. كانتشار الأوبئة والمجاعات والزلازل[1]، التي كان لها دورا سلبيا على حياة العلماء ومن بينهم الشيخ أبو راس. وطبيعة التضاريس، وشروط المناخ التي أدت إلى ضآلة المردود، وقلة الإنتاج. وأسباب أخرى. أمّا من حيث المحاصيل الزراعية، فقد اختصت كل منطقة بنوع معين حسب الظروف الطبيعية والمناخية[2]، وتأتي في مقدمتها الحبوب[•] التي اشتهرت بها سهول غريس ومعسكر ووهران، والتي كانت تنتج مقادير وفيرة منها إلى جانب عدة أنواع من الخضر والفواكه والتي نعد منها التين والزيتون والبرتقال.

أما النشاط الثاني والذي تمثله الصناعة فقد شمل أغلب المهن التقليدية، والحرف اليدوية التي كانت معروفة خلال أواخر الفترة العثمانية، وكما اختصت كل منطقة بزراعة نوع معين من المزروعات، فكذلك في مجال الحرف، حيث انفردت كل منطقة بصناعة منتوج حرفي خاص بها، مستوحى من الماضي.

---

(1) غالم محمد، وحدة الأنتروبولجيا والعلوم الاجتماعية، جامعة وهران، ص: 14.

(2) ناصر الدين سعيدوني، النظام المالي للجزائر في الفترة (1800-1830م) الشركة الوطنية للنشر والتوزيع، الجزائر، ط 1979، ص: 32.

(•) مؤلف مجهول، تاريخ القلعة، ناسخه الشيخ محمودي البشير، مخطوط بخزانة الشيخ محمودي البشير، نسخة يوم 27 نوفمبر 1973م، ورقة رقم: 6.

وكانت الراشدية آنذاك مشهورة بمنتجاتها في الأقطار الإسلامية والبلاد الأوروبية، ومن بين هذه المنتجات: صناعة الأغطية الصوفية، والبرانس والزرابي[1]، وصناعة الصابون[2]، وكذلك صناعة الجلود والسروج والألجمة. وهذا ما يؤكده مؤلف قلعة بني راشد، حين تحدثه عن سوق بني راشد الذي يقام يوم السبت بقوله: "تباع به الحبوب، والفواكه، والخضر، والحطب، واللحم، والمواشي، والصوف، والكسوة، والزربية، والكتان، والعطرية، والقهوة، والسكر، والصابون، والزيت، وغير ذلك ..."[3].

هذا يعني أن سوق بني راشد كان له صيت ذائع، بدليل السلع المختلفة التي كانت تعرض كل يوم سبت في ذلك السوق. وكان السعر معقولا وفي متناول كل واحد. ويرجع الفضل في ذلك إلى سياسة بعض البايات مثل: "محمد بن عثمان الكبير". ويتضح ذلك من خلال ما ذكره ابن سحنون: "وبلغ السعر مبلغا لم يسمع به أحد من الناس، فإنه أعان الخلائق بالسلف العام، والتصدق والإطعام .."[4].

---

(2) Emerit (M) la situation économique de la régence d'Alger en 1830, I.H mars-Avril 1952, p:17.

(2) يدعى هذا الصابون بـ:"الصابون الجز أيري، الذي يصنع من رماد الضرو، وهو أجود أنواع الصابون في غسل الثياب الصوف والبدن". سيدي أبي عمر بن عثمان القلعي، تاريخ القلعة،ناسخه الشيخ محمودي البشير، مخطوط بخزانة الشيخ محمودي البشير، نسخة يوم 27 نوفمبر 1973م، ورقة رقم: 6.

(3) مؤلف مجهول، تاريخ القلعة، ناسخه الشيخ محمودي البشير، مخطوط بخزانة الشيخ محمودي البشير، نسخة يوم 27 نوفمبر 1973م، ورقة رقم: 6.

(4) ابن سحنون، الثغر الجماني، ص: 135.

وعليه فإن الحرف المتداولة في هذه الفترة في معظمها صناعة تقليدية، رغم بساطتها إلا أنها استطاعت أن تفرض وجودها كصناعة علية لها تأثيرها العميق وفق تراثها العريق. إن أبا راس كان واحدا من أفراد المجتمع المعسكري الذي كان يتعامل مع أفراد مجتمعه، ومن ثم كان لهذا النشاط الاقتصادي الهام دور كبير في تكوين شخصية أبي راس الناصر.

أما النشاط الثالث والذي يتمثل في التجارة التي تعد من بين الأنشطة الاقتصادية الحساسة في الدولة. والتي لها تأثير كبير وصدى عميق على قطاع التعامل التجاري على المستويين الداخلي والخارجي، فداخليا كانت تتم -التجارة- داخل المدن أو عن طريق الأسواق الأسبوعية والسنوية في الأرياف، وكان مرتكز ذلك كله تلك السياسة المتبعة والمشجعة من طرف الحكومة تجاه الأسواق التجارية سعيا منها في فرض كيانها، وتسهيل عملية عبور القوافل التجارية نحو المشرق العربي أو بلاد السودان.

ومن أهم الطرق التي تربط شرق البلاد بغربها، طريق التل الواصل بين تلمسان والجزائر وقسنطينة وتونس[1]. وطريق

(1) Au capitaine, le baron Henri, étude sur la caravane de la mec que et du commerce de l'intérieur de l'Afrique. J. claye. Paris, p: 4 – Julian CH .A histoire de l'Afrique Contemporaine, la conquête et les débuts de la cocaïnisation 1827-1871 P.V.F, Paris 1964, p: 18

الواحات الصحراوية، وهو ما ساعد على تدعيم بعض المدن الداخلية وتعزيز مكانتها التجارية، وبالتالي ازدهار المراكز العمرانية الواقعة بين الطريقين.

وعموما يمكن القول بأن العمل التجاري الخارجي لإيالة الجزائر العثمانية كان حرا، حيث كان مركزا على أوربا الغربية أكثر، وهذا يعكس مدى حيوية الطريق البحري على البري، وهذا راجع إلى إبرام معاهدات السلم والتعاون التجاري التي كانت قائمة بين الدولة العثمانية والدول الأوربية، والحد من عملية القرصنة من كلا الجانبين، وهذا مما دفع بإغناء الخزينة لكلا الجانبين وارتفاع الرصيد المالي.

الحياة الثقافية

يحفل الوطن الراشدي بعلماء عظماء، برزوا في شتى مجالات العلوم الشرعية واللغوية فضلا عن نبوغهم في ميدان الدراسات التاريخية، إنه الشيخ أبو راس الناصر المعسكري، وهو المؤلف الذي قارنه الجنرال فوريقي بابن خلدون، وقارنه كذلك الدكتور الطيبي بالأمير عبد القادر، وشبهه الأستاذ أبو القاسم سعد الله "بالجبرتي" في مصر لكثرة مؤلفاته وتنوعها.

وما يمكن التركيز عليه هو أن الحياة الثقافية ببايلك الغرب -قبل أن يتولى الباي محمد الكبير الحكم -كانت متدهورة للغاية،[1] وتتسم بالخمود والجمود والتحجر[2]. وكان التعليم ينقصه وسائل التشجيع والتنشيط المعنوي والمادي، وقد وجد ذلك في عهد الباي محمد الكبير، وكانت المدن الرئيسية اليومية التي تشتهر بالعلم تكاد تكون خالية من مؤسسات التعليم وأدواته[3]. كما كان انتشار الأمية بشكل مريع لمدينة معسكر التي كانت تعد عاصمة بايلك الغرب يومئذ[4]. ولم يكن مجال العلم مفتوحا أمام عامة الناس، بل كان يقتصر فقط على بعض الخاصة، لأنه يتطلب نفقات باهضة ليست في استطاعة كل واحد يرغب في التعلم أو الدراسة، بل كانت قلة هي التي تحتكر هذا الجانب الثقافي، وتتميز به دون غيرها[5].

ويتجلى هذا الجمود الفكري والركود الثقافي في قول أبي راس الناصر: "...إذ في زمن عطلت فيه مشاهد العلم ومعاهده، وسدت مصادره وموارده، وخلت دياره ومواسمه، وعفت أطلاله

(1) والسبب في ذلك راجع إلى أن اهتمام السكان كان منصبا -في تلك الفترة- وبالدرجة الأولى على التجارة والاقتصاد بصفة عامة، لأن التجارة كانت تدر عليهم أرباحا طائلة، إلى جانب أنهم كانوا يضمنون بواسطتها على حاجياتهم اليومية أحمد بن سحنون الراشدي، المصدر السابق، ص: 135.

(2) الصالح فركوس، الباي محمد الكبير وبعث الحركة الثقافية ببايلك الغرب الجزائري، مجلة الثقافة، الجزائر، ع71، 1986، ص: 16.

(3) ابن سحنون الراشدي، المصدر السابق، ص: 133.

(1) Mimoires de Thédénat, R. A. Anneé1948.Tome 92,pp :181

(5) أبو راس الناصر، عجائب الأسفار ولطائف الأخبار، مخطوط بالمكتبة الوطنية رقم: 1632، ص: 18.

ومعالمه، لاسيما فن التاريخ والأدب، وأخبار الأوائل والنسب، قد طرحت في زوايا الهجران ونسجت عليها عناكب النسيان، وأشرفت شمسها على الأفول، واستوطن فحولها زوايا الخمول، يتلهفون عن أنداس العلم والفضائل، ويتأسفون من أنكاس أحوال الأذكياء والأفاضل، إلى الله المشتكى من الدهر، إذا أساء صبر على إساءته"[1].

على أية حال، فإن بايلك الغرب الجزائري كان يعاني من ركود ثقافي وتحجر معرفي، مثله مثل الجهات الأخرى من الوطن، خاصة طوال القرنين الأول والثاني من الحكم العثماني للبلاد، ذلك أنه قبل مجيء العثمانيين كانت معظم المدن الجزائرية خاصة تلمسان –عاصمة الزيانيين– مجالا خصبا للمجابهات الثقافية والتيارات الفكرية، كما كانت تزخر بكثرة مؤسساتها الدينية والتعليمية التي أصبحت إشعاعا معرفيا ينير جميع أرجاء القطر الجزائري وخارجه، خاصة في القرن التاسع الهجري[2].

وقد كان بعث الحركة الثقافية على يد الباي محمد الكبير الذي كان له أيادي بيضاء في تشجيع الثقافة والنهوض بها على أكمل

(1) أبو راس الناصر، عجائب الأسفار ولطائف الأخبار، ص: 02.

(2) عبد الحميد حاجيات، الحياة الفكرية بتلمسان في عهد بني زيان، مجلة الأصالة، ع.خاص، جويلية-اوت 1975، ص ص: 136-155.

وجه، فشجع العلماء بمساعدات وأجازهم بأموال، وقد نال أبو راس نفسه من هذا العطاء[1].

أهم معاهد العلم والثقافة بمعسكر

تعد هذه المعاهد من أهم مراكز الإشعاع الثقافي آنذاك بمعسكر، والتي كانت نقطة تحول في حياة أبي راس الذي كان من بين الطلبة الذين اجتهدوا في طلب العلم، والرقي إلى درجة العلماء والفقهاء.وكانت هذه المراكز تتمثل أساسا في المساجد والزوايا والمدارس والمكتبات، ومن بين هذه المعاهد نذكر على سبيل المثال:

1- المساجد

كثيرا ما يختلط على الباحث اسم الجامع والمسجد والزاوية، ذلك أنّ بعض الجوامع والمساجد كانت تابعة لزوايا معينة، كما أن بعض الزوايا كانت تابعة لجوامع ومساجد معينة، فالتداخل ليس في الاسم فحسب، بل حتى في الوظيفة، فالجوامع والمساجد كانت للعبادة والتعليم، كما أن الزوايا كذلك أحيانا، ولكن في الغالب كانت رباطا أو ملجأ أو مسكنا للطلبة والغرباء، ومركزا لتلقين الأذكار واستقبال المردين[2].

---

(1) سي يوسف الزياني، دراسة مخطوط عجائب الاسفار ولطائف الأخبار، ص: 140.

(2) أبو القاسم سعد الله، تاريخ الجزائر الثقافي، ج1، ص: 243.

وعلى كل فقد كانت العناية بالمساجد ظاهرة بارزة في المجتمع الجزائري المسلم. فلا تكاد تجد قرية أو حيا في المدينة بدون مسجد. "فقد كان المسجد هو ملتقى العباد، ومجمع الأعيان، ومنشط الحياة العلمية والاجتماعية، وهو قلب القرية في الريف، وروح الحي في المدينة. إذ حوله كانت تنتشر المساكن والأسواق والكتاتيب"[1].

كما كان يجمع بين أهل القرية والمدينة أو الحي خاصة في بنائه وأداء الوظائف فيه، فقد كان تشييد المساجد عملا فرديا بالدرجة الأولى، فالغني المحسن هو الذي يتولى ويقود عملية بناء المسجد والوقف عليه وصيانته. كانت المساهمة بالتبرعات ونحوها من طرف أعيان القرية أو الحي[2]، وكان مجهود السلطات الحاكمة في هذا المجال لا يتعدى مجهود الأفراد.

فالدولة غير مسؤولة على بناء هذه المساجد، وإذا بنى أحد البشوات أو البايات مسجدا فإنما يبنيه من ماله الخاص، مثل الباي محمد الكبير الذي شيد جامعا كبيرا يحمل اسمه (جامع محمد الكبير) بمعسكر، وهو المعروف عند أهالي معسكر بجامع العين البيضاء، "وقد أقام به الباي ستة عشر حوضا للوضوء جلب لها

(1) المرجع نفسه، ص: 243.
(2) أبو القاسم سعد الله، تاريخ الجزائر الثقافي، ج1، ص:243.

الماء عن طريق القنوات من أرض تتوفر على ينابيع ماء قد اشتراها لهذا الغرض"[1].

كما أعاد بناء مسجد معسكر العتيق الذي شيد عام 1205هـ/1791م المعروف بجامع سيدي حسن الذي شهد المبايعة الثانية للأمير عبد القادر على الجهاد فهدمه وقام بتوسيع مساحته وإحداث خمسة أحواض للوضوء به جلب لها الماء عبر قنوات وسواقي، كما أبدل محراب هذا المسجد بمحراب آخر بديع الصنع"[2]، الذي به منارة قريبة من قصر الباي[3].

ولذا كان مسجد عين البيضاء قليل الوجود من بلد المعسكر[4].

فبالرغم من ظهور المدارس ابتداء من القرن الخامس الهجري إلى غاية مجيء العثمانيين بالجزائر فإنها لم تستطع أن تنافس المساجد أو تقلل من قيمتها العلمية، وإنما تعايش الاثنان جنبا إلى جنب والاضطلاع برسالة التربية والتعليم في العالم الإسلامي[5]، لتتحول هذه المساجد فيما بعد إلى جامعات تستقطب عددا كبيرا من الطلبة والعلماء.

---

(1) ناصر الدين سعيدوني، دراسات وأبحاث في تاريخ الجزائر – العهد العثماني- المؤسسة الوطنية للكتاب، الجزائر، ط1984، ص: 249.
(2) ناصر الدين سعيدوني، الجزائر في العهد العثماني، ص: 248.
(3) أبو القاسم سعد الله، المرجع السابق، ص: 260.
(4) الآغا ابن عودة المزاري، طلوع سعد السعود، تحقيق يحي بوعزيز، ص: 295.
(5) العيد مسعود، حركة التعليم في الجزائر، العهد العثماني، مجلة مسيرتنا، وزارة التعليم والبحث العلمي، ع3، 1980، ص: 64.

2- الزوايا

كانت من أهم ميزات العهد العثماني في الجزائر، فقد انتشرت وبقوة الطرق الصوفية وكثرة المباني (الزوايا ونحوها)[1] خاصة في الأرياف، ومن ثَمّ في المدن، غير أن زوايا المدن لم تحظ بالأهمية التي كانت لزوايا الرف، نظرا للأهمية الكبيرة التي كانت تمتاز بها زوايا الأرياف، فكانت كل مدينة كبيرة أم صغيرة، محروسة بولي من أولياء الله الصالحين. فهو الذي يحميها من الغارات ومن نكبات الطبيعة ومن طمع الطامعين[2]،حسب مزاعم العامة.

وكان من بين أهدافها تثقيف المعوزين والفقراء من أبناء الشعب، المتعطشي إلى النهل من زلال العلم والمعرفة، وكانت هذه الزوايا في مجملها منقسمة إلى قسمين: قسم أول يقوم بوظيفة تحفيظ واستظهار كتاب الله، وهذا القسم يقصده غالبا الغرباء الذين سبق لهم أن تعلموا الحروف الهجائية واستظهروا بعض السور، وقسم أخر يقوم بتدريس بعض فنون الوقت مثل الفقهيات والعقائد وقواعد النحو والصرف والبلاغة والمنطق وعلم الفلك وهذا القسم لا يقصده إلا الحاملون لكتاب الله تعالى[3].

(1) أبو القاسم سعد الله، تاريخ الجزائر الثقافي، ج2، ص: 261.
(2) المرجع نفسه،ج2، ص: 262.
(3) التحفة المرضية في الدولة البكداشية، المصدر السابق، ص: 58.

وكان إذا اشتهر أحدهم بين الناس أسس له مركزا يستقبل فيه الزوار والغرباء والأتباع ويعلم فيه الطلبة، ويتبرع الناس لهذا المركز، يكبر ويثرى ويتضاعف قصاده ومريدوه، ويصبح اسم المتصوف (المرابط) علما على المكان ويدعى المكان بزاوية سيدي فلان أو رباط فلان، فإن مات دفن داخل الزاوية أو الرباط، ويرث أبناؤه وأحفاده ومن بعده مكانة وعمل سيدي فلان، وبذلك تزداد قداسة الزاوية أو الرباط بين أهل الناحية ومن ثَمّ إلى نواحي أخرى بعيدة[1].

ومن بين الزوايا التي اشتهرت بالغرب الجزائري في العهد التركي ولاسيما بالوطن الراشدي ما لا يعلمه 'لا الله، حتى قيل أن في كل دومة في غريس ولي صالح، وهناك برزت عدة زوايا نذكر منها على سبيل المثال لا الحصر: الزاوية الراشدية، والزاوية القادرية بالقيطنة بمعسكر[2]، إلى جانب زوايا أخرى من بينها، زاوية الشيخ سيدي محمد سليمان. زاوية الشيخ سيدي عبد الله بن عبد الرزاق الإدريسي. زاوية الشيخ سيدي محمد المشرفي الإدريسي شيخ الرماصي. زاوية الشيخ سيدي عبد القادر بن المختار الإدريسي. وكل هذه الزوايا موجودة بالوطن الغريسي

---

(1) أبو القاسم سعد الله، المرجع السابق، ج2، ص: 262.
(2) العيد مسعود، مجلة سيرتا –المرجع السابق-، ص: 63.

الراشدي، والملاحظ من خلال هذه الزوايا أنها كلها تتفق في النسب الإدريسي، أي نسب شريف.

ومن أهم ما كان يميز بعض الزوايا، كونها ملجأ يلجأ إليه الهاربون من العقاب والقتل مهما كانت جرائمهم، فقد كان محيي الدين مقدم الطريقة القادرية (زاوية القيطنة) يصف زاويته بأنها كمقام إبراهيم من دخلها كان آمنا[1]، وبرجوعنا إلى التاريخ نجد أن معظم الطرق الصوفية ظهرت قبل دخول العثمانيين إلى الجزائر حيث كانت عدة أسماء لامعة في التصوف والطريقة مثل: سيدي عبد القادر الجيلاني مؤسس الطريقة القادرية.

ولقد اشتهرت الطريقة وتوسع نشاطها وتغلغل فكرها وكثر أتباعها بعد الحركة المرابطية وتأكيدا لهذا ما يلاحظ من وجود عدد كبير من الأولياء الصالحين وأهل الزهد ورجال التصوف[2]. وتوسعت لتشمل الناحية الغربية بكاملها وازداد أتباعها.وقد أثرت هذه الزاوية على فكر أبي راس الناصر.

3- المدرسة

هي المكان المخصص لإلقاء الدروس بها، ولا توجد إلا في بعض المدن الرئيسية أمثال: معسكر، وهران تلمسان...،

(1) أبو القاسم سعد الله تاريخ الجزائر الثقافي،ج2، ص: 271.
(2) قناوى مصطفى، عين الحوت في العهد العثماني، ألفيت بشتوان، تلمسان، ص:15.

وكانت بهذه المدارس غرف يسكنها الطلبة المسافرون[1]، وقد عرف أبو راس الناصر المدرسة التي نحن بصددها، مدرسة التعليم الثانوي والعالي إن صح التعبير، بأنها هي التي "تبنى لدراسة العلم، أي لتعليمه وتعلّمه"[2].

فمن الجلي والواضح ومن خلال رأي أبي راس، أن المدرسة لم يكن المقصود من ورائها الزاوية أو المسجد. بل هي مدرسة مستقلة متخصصة في التعليم وحده بشطريه الثانوي والعالي[3]. وفي هذا الصدد ذكر أبو راس أنه كان في مدينة الجزائر على عهده "مدارس" كبيرة، مثل المدرسة القشاشية[4]، كما كانت المدرسة المحمدية في معسكر، وعندما وصل إلى وهران قال: "إن المدارس بالمعنى الذي قصده: قد درسها الكفرة (أي الإسبان) وكفوا رسمها" فلم يبق في رأيه في وهران لدراسة العلم سوى المساجد[5]، وتلعب المدرسة في المدينة نفس الدور الذي تلعبه الزوايا في الريف[6].

(1) ابن ميمون،التحفة المرضية في الدولة البكداشية، ص: 59.
(2) أبو راس الناصر، عجائب الأسفار ولطائف الأخبار، ص: 79
(3) أبو القاسم سعد الله، تاريخ الجزائر الثقافي، ص: 281
(4) المدرسة القشاشية التي أشار إليها أبو راس حسب ترجيح جمع من الباحثين إلى جامع القشاش، والذي يعود غلى العهد السابق بالعثمانيين، ومدرسة القشاش تعود إلى سنة 1162هـ حسب أقدم وثيقة تتحدث عن هذه المدرسة (الزاوجة) وبمجرد احتلالها من طرف الفرنسيين حولوها إلى مخازن للجيش. المرجع نفسه، ص:281
(5) أبو راس الناصر، عجائب الأسفار، المصدر السابق، ص: 90 (مخطوط).
(6) Turin. y. Affrantement culturels dans L'Afrique coloniale, Paris, 1971. P: 126

ولا يختلف التعليم في المدارس عن التعليم في الزوايا[1]، وكان من أهداف المدرسة تحفيظ القرآن الكريم إلى جانب تعليم مبادئ القراءة والكتابة وبعض العلوم الأخرى، كالحديث والنحو واللغة والفقه والتوحيد، واستكمال هذه الدراسات بعلم الحساب وقراءة المؤلفات الطبية لابن سينا، إلا انها كانت قليلة بسبب اشتغال العلماء بالعلوم الآنفة الذكر[2]. ولم يكن العلماء يقتصرون على ما في الكتاب من المادة العلمية وإنما كانوا يثرونها بروافد أخرى من أمهات الكتب...، ولم يقتصروا على طريقة لشرح النصوص وحدها، وإنما كانوا يناقشون المسائل ويرجحون رأيا على آخر[3].

ومن أهم المدارس بمعسكر نذكر منها:

1- المدرسة المحمدية

تعد من أهم المدارس التي أسسها الباي محمد بن عثمان، بالغرب الجزائري، والتي كان لها صدى واسع في العالم العربي والإسلامي[4]. والتي تعتبر أكبر معهد علمي يضم أساتذة أكفاء[5]،

---

(1) Turin.y. Affrontement culturels dans L'Afrique colonial, p: 126

(2) I.bid, pp: 125-126.

(3) المهدي البوعبدلي، الثقافة والتوجيه بالجزائر، (بتصرف من محاضرة ألقاها في المؤتمر الإسلامي المنعقد سنة 1970م)، ص: 13.

(4) سميت بهذا الاسم نسبة إلى محمد بن عثمان الكردي، إنما لقب بـ"الكبير" نظرا لتفوقه وبراعته في إدارة شؤون بايلكه، خاصة بعد استرجاع مدينة وهران والمرسى الكبير من الاحتلال الإسباني.

A.Gorgnos, RA, 1ere Année, n 5 juin 1857. P: 405.

(5) من بينهم: أبو راس الناصر، محمد بوجلال (الجيلالي)، الطاهر بن حواء، محمد المصطفى بن زرقة الدحاوي.

متفرغين لمهنة التعليم لا غير، إلــى جانــب الآلاف مــن الطلبــة والتلاميذ الذين سارعوا إلى الإقبال على العلم بلهف شديد[1]، وهي التي أشار إليها أبو راس بقوله: "وهي المدرسة التي كاد العلم أن ينفجر من جوانبها"[2].

وما يمكن الإشارة إليه هو أنه رغم اهتمام الباي بالجامع الأعظم الذي بناه بمعسكر، فإنه قد أسس مدرسة بجانبه. لأن فكرة المدرسة المستقلة عن الجامع لم تكن تدور في خيال هذا الباي، فبناؤها على هذا النحو المذكور كان متماشيا وتقاليد التعلّم الإســلامي عمومــا، فالواضح أن المدرسة كانت ثانوية بالنسبة للجامع، فالأوقاف مــثلا تنصّ على نفقة المدرسين في الجامع دون المدرسة[3]. ولقد تول أو راس مهمة التدريس بهذه المدرســة فــالتف حولــه عــدد هائــل من الطلبة.

كان الطلبة يبادلون شعور أساتذتهم فيقدرونهم ويحترمونهم لمــا يحملونه من علم، واعترافا بما عليهم من فضل بما بذلوه من جهود جليلة من أجلهم. ثــم إن المتصــفح لكتــب التــراجم، ومــذكرات العلماء، وما كتبوه عن مشــايخهم، يلمــس مــدى الحــب الــذي

(1) صالح فركوس، الباي محمد، المرجع السابق، ص: 17.
(2) أحمد بن سحنون الراشدي، الثغر الجماني في ابتسام الثغر الوهراني، ص: 127.
(3) أبو القاسم سعد الله، تاريخ الجزائر الثقافي، ج1، ص: 281.

كانت تنبض به قلوب الطلاب نحو أساتذتهم، وما فاضت به أقلامهم.

ونستشهد في هذا الصدد بما ذكره محمد بن علي السنوسي في معرض حديثه عن أساتذته الذين تتلمذ على أيديهم: "ومنهم شيخنا وشيخ مشايخنا الهمام الحافظ الإمام، سيدي محمد بوراس المعسكري البلد –رحمه الله– كنت أتردد إليه كثيرا واستفيد منه استفادة عظيمة، لتمام حفظه وإتقانه لكل فن حافظا لمذاهب الأئمة الأربعة، جواب كل ما سئل عنه بين شفتيه، وغالب من أخذنا عنه من أهل ناحيته أخذ عنه"[1].

ومن أهم العلوم التي كانت تدرس في هذه المدرسة، لاسيما في المرحلة الخيرة من العهد العثماني،كتب الفقه مثل:حواشي شرح الشيخين الزرقاني والخرشي[2]. وهما الحاشيتين اللتين اعتمدهما أبو راس في تدريسهما للطلبة، وحاشية الشيخ مصطفى الرماصي الذي كان آية عصره. إلى جانب كتب النحو مثل:شرح الشيخ المكودي، وفي اللغة كتاب القاموس للشيخ فيروزآبادي، ومقامات الحريري،

(1) ابن سحنون الراشدي، الثغر الجماني، ص: 66 (من هامش مقدمة المحقق رقم:53).
(2) وجدنا تعليقا على هذه الحاشية ضمن مخطوط من مسائل الرعاة، بدايته: "الحمد لله، فالمؤلف أي أبو راس، سلك طريقة في كتابه منهاجا عجيبا، فجعل الباب فصلا، وجعل الفصل رأس كلام نصيب، وجعل الكتاب بابا فقسمه بين تفصيل وتبويب."مؤلف مجهول، من مسائل الرعاة، زودنا به الأستاذ بليل حسني، الورقة الأخيرة من المخطوط.

وفي الأصول شرح الشيخ المحلي. فضلا عن كتب التصوف، المنطق، الفلك وعلم البيان إلى غير ذلك من العلوم النقلية والعقلية الأخرى.

وكان العلماء يحظون بمنزلة عظيمة لدى المواطنين، وكان نفوذهم على طبقة العامة كبيرا. وكانت الطبقة الموسرة من جانبها تقلد أنماط سلوكهم، وكل فرد منهم يجد أنه من الشرف له أن يستقبل واحدا من هؤلاء العلماء في بيته. ومهما يكن. فقد حفلت مظان السير والتراجم بصفحات ناصحة لما كان عليه العلماء في ذلك العصر من عفة وتواضع وسماحة وإيثار، وعلاقاتهم بطلبتهم، ومحاولة منهم في إفادتهم وتزويدهم بما ينفعهم من علوم دنيوية وأخروية.

2- مدرسة القيطنة

هي الأخرى من المدارس التعليمية الكبيرة بمعسكر خلال المرحلة الأخيرة من العهد العثماني بالجزائر. فقد تأسست هذه المدرسة بمنطقة القيطنة، بالقرب من بوحنيفية، حوالي سنة (1200هـ/1787م)، على يد مصطفى بن المختار بعد رجوعه من بغداد. وبعد وفاته في عين الغزال بليبيا، تسلم أمور إدارتها الشيخ محي الدين والد الأمير عبد القادر.

وكانت هذه المدرسة من المدارس التعليمية الهامة في الجزائر، حيث جمعت بين كل مراحل التعليم من أدنى مرحلة حتى أعلاها. كما كان بها ست حلقات تعقد لجلسات العلم، بمعية عدة أساتذة. وكانت تضم عددا كبيرا من الطلاب يتراوح عدده ما بين(700و1800) طالب علم دائمي الدراسة، مع العلم بان عدد الطلاب في كافة أنحاء الجزائر كان هائلا حول العلماء[1].

وقد تطورت المدرسة تطورا كبيرا، وأصبحت تلقب "بمعهد القيطنة" نظرا لتوافد الطلبة والعلماء عليها. ولكن من العلماء الذين درسوا بها أبو راس الناصر. وهذا مما يدل على علو همتها، وذكرها في الآفاق. فنجد أن أبا راس قد درس في هذا المعهد الديني الكبير، بدليل قوله: "فذهبت للقيطنة، وقد اجتمعت جموع من الطلبة"[2]. فهذا مما لا جدال فيه أن مدرسة القيطنة كانت مدرسة معترف بها من قبل علماء الوطن أولا ثم من علماء الأمصار ثانيا.

---

(1) مجموعة أساتذة، معسكر رجال وتاريخ، الحياة الروحية في الإسلام، ملتقى الفكر الإسلامي الواحد والعشرين، وزارة الشؤون الدينية، معسكر، 26 أوت/ سبتمبر 1987، ج1، ص ص:13-15.

(2) أبو راس الناصر، فتح الإله ومنته في التحدث بفضل ربي ونعمته، الشركة الوطنية للكتاب، الجزائر، ط1990، ص:24.

ونشير إلى أنه لم تقتصر معسكر علـى المدرسـتين المـذكرتين سالفا، بل تعدتها إلى مدارس أخرى كانت في الوقت نفسـه زوايـا تقوم بالدراسة والتعليم. نذكر منها: مدرسة زوايـة سـيدي علـي شريف بسيق، مدرسة زاوية سـيدي محمـد بـن قالـة الحسـني بالكرط، مدرسة زاوية مصطفى بن الطيب بعقاز، مدرسة زاويـة سيدي علي بلحجاج بني شقران، مدرسة زاوية سيدي قـادة. التـي كان لها الفضل الكبير في إعطـاء المعلومـات، وتزويـد الطلبـة بالأفكار والفتاوى والآراء الفقهية وغيرها.

أما عن أهم العلوم التي كانت تدرس في هـذه المدرسـة، ففـي غالبيتها علوم شرعية وعقائدية، وبعض من المجالات الأدبية. وبما أن مؤسس هذه المدرسة من المتصوفة، فإن الطابع الغالب عليهـا هو المجال العقائدي أكثر من العلوم الدينية الأخرى. من بين هـذه العلوم ذكر على سبيل المثال: كتب التوحيد للشيخ السنوسي، كتـب الحكم العطائية، أما الفقه: كتب مختصر الشيخ خليـل، وحواشـي الشيخ الداسوقي والشيخ الدردير، وفي الحـديث: كتـاب صـحيح البخاري، وكتب الأئمة الستة المعتمدة. لقد كانت هـذه المـدارس العتيقة إشعاعا ثقافيا ساعد على تخريج.

لقد كان لهذه المدارس تأثيرا كبيرا على شخصية أبي راس وحتى في تكوينه العلمي والمعرفي، وهذا يتجلـى مـن خـلال تعليمـه

بهذه المدارس من جهة ومن خلال تدريسه بهـا، وإشـرافه علـى مجموعة هائلة من الطلبة الذين يبلغ عددهم في غالب الأحيان 780 طالب.

4- المكتبات

لا تقل المكتبات أهمية عن سابقاتها من مساجد وزوايا ومدارس. وتشمل المكتبات العامة والخاصـة، وهـي التـي كانـت تضـم أشتات المخطوطات في مختلف فنون الوقت، كما كـان يقصـدها الطلبة والأساتذة من جميع النواحي للمطالعة فيها، لاسيما المكتبات العامة التـي كانـت وقفـا وحبسـا علـى المسـاجد والزوايـا والمدارس.

وقد كانت من بين المكتبات ذات الأهمية البالغة بمعسكر مكتبـة أبي راس الضخمة التي تضم أنفس الذخائر، والمخطوطات النادرة وحتى المؤلفات التي ألفها أبو راس نفسه، والتي لم تحقق ولم تطبع إلى يوم الناس هذا. وتعرف هذه المكتبة باسـم "مكتبـة المـذاهب الأربعـة"، نظـرا لاحتوائهـا علـى مؤلفـات أئمـة المـذاهب الأربعة، وحسب قول أحد الباحثين أن هذه المكتبة كـان يقصـدها علماء عدة من فاس ومكناس وتونس وليبيا...إلخ.

وتشهد عبارات الباحثين الفرنسـيين الـذين شـاهدوا وجمعـوا المخطوطات من مكتبات المدن الجزائرية غداة الاحتلال، أنهم كانوا

مندهشين من كثــرة الكتــب المؤلفــة التــي وجـدوها، ومــدى تنوعها، ومن جمالها، والعناية بها. فقد اعتــرف بـذلك "أدريــان بيروبرجـد Adrien Biroubridj" الــذي رافــق الحملــة الفرنسـية على قسنطينة وتلمسان ومعسكر[1]. لقد لعبت المكتبــة دورا كبيــرا وفعالا في حياة أبي راس العلمية والثقافية في العصر العثماني، مما جعلته يسعى جاهدا في خدمة العلم. ولا زالت إلى حد الآن تؤدي ما عليها من أجل تسهيل عملية البحث والمطالعة للباحثين.

العوامل المؤثرة في طلبه للعلم

لقد كان لأبــي راس فــي مسـيرته العلميــة عوامــل حفزتــه على تصدر مراتب التفوق العلمي ودفعته إلى التأليف والتصـنيف في مختلف العلوم والفنون، إلى جانب مناظراته المفحمة لخصــومه المخالفين له من العلماء والفقهاء، بالإضافة إلى مستواه المعيشــي من فقر مذقع، فكان هذا السبب عاملا مهما في بروز شخص أبــي راس الناصر من ضمن العلماء البارزين في عصــره ومــواكبتهم في تحصيل شتى العلوم، كما ساعدته في ذلك حافظته الكبيــرة، إذ لقبه قرناء عصره من المشايخ والعلماء الأجلاء بحــافظ المغــرب الأوسط، وهناك عوامل ساعدته على الإكثار من التأليف والتصنيف

(1) أبو القاسم سعد الله، المرجع السابق، ج1، ص: 287. وأنظر أيضا: تاريخ الجزائر، ج3، ص: 317.

حتى وصفه بعضهم بالمتجاوز تصانيفه عدد سنوات تعميره، ومن جملة هذه العوامل نذكر المهمّ منها.

1) تشجيع الباي للكتاب

يعد البـاي محمـد بـن كبيـر مـن البايـات الـذين اهتمـوا بالكتاب، والذين عملوا على استئلاف العلماء وتقريبهم إليه، فكـان يختار من جلسائه العلماء والأدباء من كتـاب والشـعراء وكانـت مجالسه تضم العديد منهم خاصة في المناسبات" والأعياد، فإنه كان يعم فيها أهل الوظائف كالخطباء والأئمـة والمـؤذنين والمـؤدبين والمدرسين"[1].

وقد كان يستشيرهم أيضا في بعض القضايا الهامة[2] ويـوجههم ويرشدهم إلى مناصب مختلفة؛ فكان مثلا أحمد بن هطال التلمساني قد شغل عدة مناصب سياسية في بايلك الغرب. إذ كـان مستشـارا للباي وكاتبه الخاص والمبعوث له في المهام الخارجيـة[3] وكـان من بين الذين أسند إليهم المناصب العلامة أبو راس الناصري الذي شغل منصب قاضي مدينة معسكر ومفتيها[4]. كما كان محمد الكبير

(1) أحمد بن سحنون الراشدي، الثغر الحماني في ابتسام الثغر الوهراني، تحقيق البدوي البوعبدلي، منشورات وزارة التعليم الأصلي والشؤون الدينية، قسنطينة، ط1973، ص: 143.
(2) المصدر نفسه، ص: 427.
(3) أحمد بن هطال التلمساني، رحلة محمد الكبير إلى الجنوب الصحراوي الجزائري، تحقيق محمد بن عبد الكريم الجزائر، 1972. مقدمة بمحقق ص: 13. أنظر كذلك: أحمد بن سحنون، نفس المصدر، ص:247.
(4) يحي بوعزيز، الإنتاج الفكري والأدبي للشيخ أبي راس الناصري المعسكري، نفس المصدر، ص: 245.

يشجع الكتاب على التأليف في شتى فنون المعرفة، فيعينهم بمساعدات، ويكافئهم بأموال، وقد نال أبو راس نفسه من هذا العطاء.

كما بنى الباي مدرسة معسكر التي كان أبو راس يدرس بها، ولذا يقول ابن سحنون الراشدي في اهتمام الباي محمد الكبير بالعلم: "ولمحبة هذا الأمير للعلم والأدب كما يشتري كتبه بالثمن البالغ ويستكثر منها وينسخ ما لم تسمح نفس مالكه ببيعه، وكثيرا ما يأمر بقراءتها بحضرته في مجلس حكمه"(1).

ويعد الجو الثقافي الذي أحدثه الباي محمد الكبير، فاتحة عهد جديد أتاح الفرصة أمام العلماء والمدرسين والأساتذة بممارسة التعليم واستغلال مواهبهم في الكتابة والتأليف، وبخاصة عندما فتح باب الوظائف أمامهم وخصص لهم رواتب "... يأخذونها من الأحباس بعد أن كان العلماء لا ينفقون من ناحية المخزن بشيء إلا من كان متوليا لخطة أو مستعملا في خدمة، فاتسعت بذلك حال العلماء وانشرحت الصدور للقراءة وشرهت لها النفوس، وكثر طلبة العلم وتشوق كل أحد للتدريس واشتد الحرص على العلم من بعد أن كاد يترك اشتغالا بالتجارة لقلة جدواه"(2).

---

(1) أحمد بن سحنون، الثغر الجماني في ابتسام الثغر الوهراني، ص: 147.
(2) نفسه، ص: 135.

الواضح أن الباي كان يريد من وراء تشجيعه للعلم والثقافة ككل، هو استقطابه للعلماء وكسبهم إلى فلكه وهذا لتدعيم نفوذه في الملك. "فقد كان ذكيا يتمتع بتفكير سياسي بعيد النظر، إذ عرف كيف يكسب هؤلاء العلماء ويجلبهم إليه، ويجعلهم يلهجون بالثناء عليه ويثابرون بذكر مناقبه وتخليد مآثره[1]. كما كان الباي يرمي من وراء ذلك إلى هدف آخر، هو بعث الرباطات الطلابية[2] التي أصبحت كمؤسسة علمية، ذلك أن الباي محمد الكبير كان قد جعل الدراسة تقتصر على من كان بالرباط الذي كان يشرف على إدارته والأساتذة فجمع بذلك المرابطون بين الدروس العلمية والجهاد[3].

ومما لا شك فيه أن ولوع الباي محمد الكبير يعود إلى شخصيته المثقفة، فكان وضيعا في كلامه يحب المطالعة[4]، من هذا الجانب يمكن اعتبار تلك الحركة الثقافية طبيعة نابعة من استشارته، وتشبعه بالثقافة. هذا لا يعني أن الباي محمد الكبير هو الوحيد في عصره الذي كان يخدم الثقافة العربية ويشجع العلماء على خدمة العلم، فمثلا صالح باي قسنطينة كان هو الآخر من بين الذين عملوا

---

(1) صالح فركوس، الباي محمد الكبير وبعث الحركة الثقافية ببايلك الغرب الجزائري ،مجلة الثقافة، الجزائر، ط1982، ع72 ،ص:26 .

(2) من بين هذه الرباطات المشهورة: رباط وهران، ويسمى برباط صلب الفتح، بث بها الباي محمد الكبير عندما عزم على فتح وهران. أنظر: المهدي البوعبدلي، الرباط والفداء في وهران والقبائل الكبرى، مجلة الأصالة، وزارة التعليم الأصلي والشؤون الدينية، ط 1973، عدد 13، ص: 24.

(3) أحمد بن سحنون الراشدي، المصدر السابق، ص ص: 233-241.

(4) محمد بن يوسف الزياني، دليل الحيران وأنيس السهران في أخبار مدينة وهران، تحقيق المهدي البوعبدلي، ش.و.ن.ت، الجزائر، ط 1978، ص: 199.

على تشييد المؤسسات الدينية والتعليمية ومن أشهرها مدرسة سيدي الكتابي وسيدي لخضر[1]، إلا أن ما قام به صالح باي لا يرقى من حيث الحجم والاتساع إلى المستوى الذي عرفه بايلك الغرب في عهده، ولعل ذلك راجع إلى جهل صالح باي باللغة والثقافة"[2].

2) حب أبي راس للعلم

إنّ حب أبي راس للعلم ينطلق من تشجيع الباي محمد الكبير للكتاب والعلماء، وهو بمثابة محفز أساسي لهم، حتى ينتجون أكثر ويفيدون الكثير من طلبة العلم. إذ كان يجزل لهم عطايا[3] ويحثهم على التأليف في التاريخ، فمثلا: عندما كان يحاصر مدينة وهران الواقعة تحت نيل الاحتلال الاسباني أمر احد الكتاب وهو مصطفى ابن زرفة الدحاوي بتسجيل تلك الأحداث.

ويتضح حب أبي راس للعلم والتأليف من خلال قوله: "هذا وأني قد خضت في هذا الفن قديما، وضقت به أديما، لم أزل في خدمته مستديما حتى كثرت عندي رقاعه، وامتلأت بقاعه، وصارت نفسي تحدثني بالتدوين والانخراط في صنف المؤلفين وهنت علي شيئا

---

(1) E. mercier: histoire de constontine, c.n.e, 1903, pp: 293-295.

(2) العيد مسعود سعيد، المجتمع الجزائري في ظل الحكم العثماني، ص: 377.

(3) أبو راس الناصر، عجائب الأسفار، مخطوط المكتبة الوطنية الجزائرية، رقم:1632، ص: 124.

أمره[1]، وأنا في ذلك أقدم رجلا وأخر أخرى[2]، وإنني لي بذلك وبضاعتي في هذا العلم نزر منزور، والمتشبه بما لم يعط كلابس ثوب نوره مع ما كان يعوقني من ذلك ويمنعني في الخوض فيما هناك "[3].

ولذا فإن اهتمام الكتاب والعلماء المتزايد بجوانب المعرفة، يعود إلى ولوعهم بالعلم والمعرفة. ومن حيث استخلاص العبر والدروس من الأحداث التاريخية. ومن ثم فإننا نجد أبو راس من بين العلماء والكتاب الذين أرخوا لمدينة هران وللأمم التي تداولت عليها، والأحداث التاريخية التي وقعت بها[4]، وكذلك لتاريخ بعض الدول الأخرى، كتاريخ الدولة الفاطمية بالجزائر[5]، والمغرب الأقصى وطرابلس وغيرها[6].

وهناك من كان يعنى بنسب القبائل والتاريخ لها، وبنسب البربر ومساكنهم والتعريف بزعمائهم وملوكهم والدور الذي لعبوه عبر التاريخ إلى غاية سقوط دولهم وإماراتهم[7] من بينهم أبو راس. ومما يؤكد هذه العناية الفائقة بالتاريخ الإقليمي(المحلي) وتاريخ

(1) في نسخة الشيخ محمودي البشير مبتورة الأخير، كتب العبارة " أمراه شينا " على خلاف النسخ الأخرى.
(2) في النسخة المبتورة الأخر، بزيادة الألف واللام.
(3) أبو راس، عجائب الأسفار، ص: 02.
(4) نفسه، ص ص:31-32.
(5) أبو راس، عجائب الأسفار، ص: 23.
(6) المصدر نفسه، ص: 47-48.
(7) أحمد بن سحنون الراشدي، المصدر السابق، ص: 436-437.

الدول، هو أن كثيرا من كتاب ومؤرخي تلك الفترة كانوا يحثون على الكتابة فيه(1). وقد كان بعض العلماء ببايلك الغرب يسجلون رحلاتهم إلى المشرق العربي في مواسم الحج وما يحدث لهم. وكذا انطباعاتهم والمناقشات التي كانت تدور بينهم وبين العلماء هناك(2).

حياته وثقافته

تعد الراشدية موطن العلماء والفقهاء والمؤرخين، وأبو راس الناصر واحد منهم، نبغ في شتى مجالات العلوم الشرعية واللغوية، فضلا عن اهتماماته الواسعة في ميدان الدراسات التاريخية بقسميها المحلية والعامة. وبحكم البيئة التي عاش فيها أبو راس، فإنه استطاع أن يفرض نفسه وينافس علماء عصره آنذاك. فقد شغل أبو راس مناصب عدة، كان لها تأثير كبير على حياته العلمية وتكوينه الثقافي بشكل عام.

لقد استطاع الشيخ أبو راس أن يكون سندا قويا يعتمد عليه خصوصا، فيما يتعلق بالكتابات التاريخية التي أثراها بآرائه، وانتقاداته التي يستشعر الباحث من خلالها أن الشيخ على دراية

(1) الثغر الجماني في ابتسام الثغر الوهراني، ص: 140.
(2) وقد سجلها أبو راس في كتابه المسمى (عجائب الأسفار ولطائف الأخبار)، وبعضهم يسميها الرحلة وبعضهم يرى أن فتح الإله هو الرحلة، لكنها في الحقيقة ليست بالرحلة وإنما الرحلة الحقيقية هي التي كانت موجودة نسخة منها بالمكتبة الوطنية الجزائرية، في الخمسينات بدليل شهادة المهدي البوعبدلي، وثيقة للمهدي البوعبدلي، بحوزة الشيخ أبو عبد الله شراك، الورقة:1

كبيرة من التحليل اللغوي والأدبي والتاريخي على وجه الخصوص. فكانت حياته مليئة بالعلم والمعرفة تتخللها مناظرات ونقاشات مع سائر علماء الأمصار. رغم الظروف الاجتماعية السيئة، وذوقه لمرارة العيش وحياة اليتم، غير أنها كانت ربما أسبابا محفّزة له، لمواصلة مجال المعرفة وتصدر أعلى المراتب فيما بعد.

1- مولده

ولد أبو راس محمد بن أحمد بن الناصر[1] الراشدي، عام(1150هـ-1737م[2]، بقلعة بني راشد[3] قرب مدينة معسكر بالغرب الجزائري بين جبل كر سوط[4] وهونت[5]، في منتصف

(1) نسبة إلى جدهم الناصر بن عبد الحق بن عبد الرزاق الذي ينتهي إلى إدريس بن إدريس بن عبد الله الكامل بن الحسن المثنى بن الحسن السبط بن علي بن أبي طالب وفاطمة بنت رسول الله ﷺ. انظر: مخطوط الأنساب من المغرب والمشرق العربيين، مكتبة المتحف البلدي -الشهيد زبانة- بوهران.لقد أثبتنا لفظ "الناصر" في جل مؤلفاته، على خلاف من ينسبه بالناصري نسبة إلى قبيلة النواصر ونسبهم كما تقدم ذكره.

(2) بعد تصفحنا لجل المصادر العربية والمراجع الأجنبية، تبين لنا أن هذا التاريخ هو الصحيح والمتفق عليه حول مولد أبي راس إلا في ثلاثة مقالات فإنها تذكر تاريخا مختلفا تماما عن التاريخ السابق وتكاد تتفق عليه، وهو الثامن من صفر خمس وستون ومائة وألف هجرية (08 صفر 1155هـ/ أفريل 1755م) أنظر: Ould Aboucha, "Abou Ras Annaciri, Historien", Algerie Actualite.oran, 01-02-1975, N 484. P: 15. وهناك تاريخ آخر: 1165هـ/1756م ، مجلة الراشدية، عدد: 0 ماي 1995، ص: 13.

(3) تنسب إلى: "أولاد راشد بن محمد من بطون مغراوة، وهذا راشد أخ يادين، وأعطاه الله إثنا عشر ولدا، ثم كثر نسلهم وامتدت فروعهم وظهرت نجابتهم في الحروب، وحدث شوكتهم، وترادفت بهم أعداؤهم، الكروب وامتلأت الصدور منهم رعبا، وخافت الناس بأسهم شرقا وغربا، ولما فيهم من الشجاعة والأنجاد". انظر مخطوط ابن عثمان القلعي، تاريخ قلعة بني راشد، ناسخه البشير محمودي، البرج، معسكر نسخ سنة 1373م، ص: 01. وهناك من يقول إن: "مؤسسها راشد بن المرشد القرشي، مولى إدريس الأول، دفين زرهون بالمغرب الأقصى في القرن الثاني للهجرة". انظر: علي حشلاف، سلسلة الأصول في شجرة أبناء الرسول، ص: 25. والقول الأخير هو امتداد للثاني، باعتبار امتداد فروعهم وتكاثر نسلهم في الشرق والغرب.

(4) كرسوط: هو جبل يقع غرب وادي التاغية بالغرب الجزائري، على بُعد حوالي 08 أو 09 كلم من وادي التاغية، وبالضبط جنوب معسكر، والذي يحتوي على آثار بربرية من بناء ومطامير الحب، "وكَرْسُوط بفتح الكاف وسكون الراء وضم السين المهملتين، سمي باسم ساكنه في القديم من الزمان بقي به متعبدا منقطعا بالله تاركا لما لا يعنيه إلى أن مات رحمة الله عليه، وخلف به أبناء ستة تعرف أسماؤهم الآن في الوقت الحاضر". محمد الراشدي المزيلي، عقد الجمان النفيس في ذكر الأعيان من أشراف غريس لناسخه محمودي البشير، عام 1964م. مخطوط موجود بخزانة سي البشير محمودي، ص: 365.

(5) هونت: جبل يقابل جبل كرسوط المتقدم، وقد حكم هذه المنطقة المرينيين، ويرجع نسبهم إلى ذرية أولاد سيدي عمر، أبو سيدي أحمد بنو مرين، منذ أزيد من سبعة قرون، ويقع غرب كرسوط، وتقام سنويا بهذه المنطقة وليمة تعرف بوليمة سيدي أحمد. حسب رواية أعيان المنطقة.

القرن الثني عشر للهجرة، وفي هذا يقول أبو راس عن مولده: "ولما ولدت بالموضع المار حملتني أمي ووالدي إلى الشيخ الصالح الولي، الذي كاد أن يكون كالشيخ الجيلي[1]، شيخ بعض شيوخي الشيخ بن موسى اللبوخي[2]... فبارك عليه وأخبرني بغيب خوارق وعادات تكون لي مودات من علم وعمل وصلاح، وغنى وحفظ وإصلاح، وشيخ طلبة، لفيف ودرس وخطابة وقضاء وتصنيف"[3]. ولأبي راس أخوين وأخت، فالأخوين هما:" السيد عبد القادر، والسيد بن عمر[4]، وهو الأخ الأكبر لأبي راس، وأخت اسمها حليمة".[5]

ولذا فإن مولد أبي راس يعد بمثابة إشعاع علمي ظهر بمعسكر خصوصا وبالجهة الغربية عموما، إن لم نقل للعالم العربي كله، وهو ما دفع ببعض الباحثين والمؤرخين من أن يفردوا فصولا عن سيرته الذاتية، مثل: محمد بن عبد الكريم الجزائري الذي أقدم

(1) هو أبو محمد ب عبد القادر بن موسى بن عبد الله بن جنكي دوس الحسني المعروف بالجيلاني أوالكيلاني أو الجيلي، وهو أحد كبار الزهاد المتصوفين ومؤسس الطريقة القادرية توفي رحمه الله سنة 561هـ /1166م.أبو راس فتح الإله في التحدث بفضل ربي و نعمته، ص:20

(2) هو أحد صلحاء اليعقوبية من بني يعقوب، والتي تبلغ بطونهم حوالي خمسة عشر بطنا، واليعقوبية قبيلة كبيرة تقع جنوب معسكر، وتمتد جنوبا إلى فرندة وسعيدة. عبد القادر المشرفي، بهجة الناظر، تحقيق محمد بن عبد الكريم، دار مكتبة الحياة، بيروت لبنان. ط؟، ص: 14.

(3) حبار مختار، السيرة الذاتية لأبي راس الناصر من خلال مخطوطه: "فتح الإله ..." محاضرة ألقيت في ملتقى أبي راس عام 1997م بمعسكر، ص ص: 01-02.

(4) أبو راس، فتح الإله ومنته في التحدث بفضل ربي ونعمته، ص: 19.

(5) أبو القاسم سعد الله، أبحاث وآراء التاريخ الجزائري، ش و ن ت، القسم الأول، ط 2 – 1981، ص: 83.وهنا يثني عليها أخوها أبو راس فيقول: "برّد الله ضريحها وأسكنها من الجنة فسيحها". أنظر أبو راس، المصدر السابق، ص: 18.

على تحقيق واحد من نفائس مخطوطات أبي راس[1] المنسية والنادرة في نفس الوقت. بالإضافة إلى عدة أجانب مثل: الجنرال فوربيقيFaure Bigeut ، والباحث: أرنود Arnaud الذي ترجم فصولا عن رحلته.

فرغم الاختلافات الطفيفة حول مولد أبي راس وهو ما سلف ذكره إلا أن بعض المؤرخين يجزمون تمام الجزم على أن هذه الشخصية كان لها بالغ الأثر في الحياة الاجتماعية والاقتصادية والسياسية والثقافية للجهة الغربية وبالأخص فترة الباي محمد بن عثمان الكبير. وقد قيل في وصفه بأنه كان متوسط القامة، نحيف الجسم، أبيض البشرة، خفيف اللحية، صغير العينين طويل الأنف نحيفه، كبير الرأس، ولعل كنيته (أبو راس) قد لصقت به لذلك[2].

ولا زالت ذريته إلى الآن بنواحي غريس وخصوصا بنواحي مستغانم وهؤلاء ينتسبون إلى أبي راس الحفيد (أبو راس المازوني)، قال الشيخ الهاشمي بن بكار مفتي مدينة معسكر: "والشيخ أبو راس فقيه مازونة المشهور هو حفيده (أي حفيد أبي

(1) محمد حجي، موسوعة أعلام الغرب، دار الغرب الإسلامي، بيروت، ط1980، ج7، ص:2516.
(2) أبو القاسم سعد الله ، تاريخ الجزائر الثقافي، ص:393

راس الناصر المعسكري) ابن ابنته السيدة زوله وهذا الأخير دفن بمازونة -على خلاف الجد الذي دفن بمعسكر-"(1).

ويضيف الشيخ الهاشمي بن بكار قائلا: "وذكر سيدي الحاج بن علي المقدم التجاني بمدينة معسكر، رحمه الله في رسالة هي موجودة بخزانتي أن كلا من السيد أبي راس المعسكري والسيد أبي راس المازوني كان حاملا لواء الطريقة التجانية يذكر أذكارها وينتفع بأنوارها وأسرارها. وسبب تزويج ابنة السيد أبي راس ابنته بمازونة هو انه كان يعلن لأهل معسكر بل دروسه أن له ابنته هي في عين الحاجة من يأخذها منه يساعده، ثم بدل العبارة فصار يقول:"من يأخذه منه يعينه، فظن الحاضرون أن بابنته عيبا، ولما حضر تجار مازونة وسمعوا مقالته فخطبوها منه وجاءت لهم بولد أسموه على جده "أبي راس". فكان هذا الأخير آية في العلم والورع والذكر، رحمه الله ﷺ(2).

يقول العلامة الصادق ابن الحميسي:" فهذا واجب علينا رثاؤه كعادة من سلف حسب الجهد والمقدور، بنبذة من منظوم ومنثور، رجاء رضاه ورضى أسلافه الأبرار وأن أكون منخرطا في حزبهم

(1) الهاشمي بن بكار، مجموع الحسب والنسب والفضائل والأدب، ص:13.
(2) نفسه، ص:13

الصالح في الدارين بفضل الله العلي الستار"[1].هذه بعض الأبيات منها:

فيا سقي على الإمام أبي الهدى مفيد طلاب العلم من كل وجهة

فيا سقي على الإمام أبي الوفا مزين دروس العلم الفقه في كل ساعة

فيا سقي على النقي أبي التقى أبي راس المذكور في كل بلدة

فيا سقي على أبي اصفا معظم شرع العلم في كل لحظة

فيا سقي على الربية مقامه بسعي بليغ بأحكام الشريعة

إنّ الشيخ الحفيد أبي راس يعد بحق خليفة جده أبو راس الناصر، فقد كان آية في العلم كما تقلد منصب الفتوى، وهذا ما تؤكده الوثائق التاريخية المخطوطة التي تحصل عليها الباحث من زاوية مازونة الغنية بالتراث التاريخي لهذه المنطقة ونواحيها.

2- نسبه

كان علم النسب للقبائل العربية له منزلة علية ومكان رفيع وجلالة قد ربين العلوم الإنسانية والاجتماعية. وقد كان لأبي بكر الصديق-ﷺ وأرضاه-الجانب الأوفر والقدح المعلىّ والمقام الرفيع في انساب العرب. وقد حث عليه نبينا الكريم صلى الله عليه وسلم في مواضع كثيرة[2]. ولذا نجد أن تلميذ أبي راس محمد بن علي

(1) وثيقة استلمت من طرف الأستاذ الدكتور فغرور دحو يوم 2001/03/27 وهي قصيدة رثاء من الشيخ الصادق ابن الحميسي للشيخ الحافظ أبي راس الناصر المازوني حفيد الشيخ أبو راس الناصر.

(2) محمد سليمان الطيب، موسوعة القبائل العربية، بحوث ميدانية و تاريخية، دار الفكر العربي، نصر مصر، ط2-1997، م1، ج1، ص:23.

السنوسي يقول في علم النسب: "فاعلم أنه ورد في علـم التـاريخ المشتمل على علم الأنساب آثار وآيات وأخبار، مما هو متعـارف مشهور، وفي كتبه مدون مسطور "(1).

أما فيما يخص نسب أبي راس الناصر، تكاد تتفق حولـه جـل المصادر العربية والأجنبية. فعند تصفحنا لها تبين لنـا أن هنـاك اتفاق تام بينها. فنسب أبو راس وحتى نتأكد أكثر رجعنا إلى سيرته الذاتية المسماة: "فتح الإله ومنته في التحدث بفضل ربي ونعمته"(2). وهي سيرة فريدة من نوعها، إذ قيد فيهـا حياتـه بيـده، حفاظـا على شخصيته، كمـا اعتمـدنا علـى النسـخة المترجمـة للّغـة الفرنسية، والتي ترجمها الجينرال فور بيقـي G.Faure Beguet تحـت اسم:"Notice sur Mohammed Abou Rass" إلى جانب بعض كتب النسب المعروفة(3).

---

(1) محمد بن علي السنوسي الخطابي،الدرر السنية في أخبار السلالة الادريسية، مطابع دار الكتاب اللبناني، بيروت لبنان، طـ 1388هـ/1968م، ص:5

(2) قام بتحقيقه الأستاذ محمد بن عبد الكريم الجزائري بالاعتماد على ثلاثة مخطوطات واضحة الخط سليمة من الأخطاء، أولاها: مخطوطة المرحوم الشيخ عبد الحي الكتاني المغربي، باعتبارها أقدم مخطوطة وأزيدها نصا. وثانيها: مخطوطة الشيخ عبد الرحمن الجيلالي الجزائري. وثالثها: مخطوطة الشيخ أحمد جلول البدوي الجزائري.

(3) ابن عبد الجليل التونسي، الجوهرة الكبرى، مخطوط مصور عند محمودي البشير، البرج، معسكر.

- مؤلف مجهول، الأنساب من المغرب والمشرق العربيين، مخطوط بالمتحف البلدي بوهران تحت رقم AR/136.

- ابن الشارف، سلسلة الأصول في شجرة أبناء الرسول للقاضي حشلاف، المطبعة التونسية، تونس، ط 1929.

فمن نسبه، يقول أبو راس: "فأنا عبد ربي محمد أبو راس بن أحمد بن عبد القادر بن محمد بن أحمد بن الناصر بن علي بن عبد العظيم بن معروف بن عبد الله بن عبد الجليل، وأن هذا النسب متصل إلى عمرو بن إدريس بن عبد الله الكامل بن الحسن المثنى السبط، بن علي بن أبي طالب، وفاطمة بنت رسول الله ﷺ"[1].

أمّا والده الشيخ أحمد، فكان من القراء الماهرين والأساتذة المشهورين بالصدق والصلاح، ومن حفظة القرآن الكريم وحامليه[2]، "ومن أهل الحزم في الأدب والجد، ويعد من بين الأتقياء الورعين الصالحين"[3]. وأما جده فهو "الشيخ عبد القادر الذي انقادت إليه أزمة ذوي الأقدار والمقادير، فكان بحق أعجوبة زمانه في الولاية والصلاح والفضل الفضيل ...، وكان مذهبه في رسم القرآن الكريم على طريقة المشارقة"[4].

---

(1) سيدي محمد الشريف، روضة الأزهار في التعريف بآل محمد المختار، ناسخها محمودي البشير، البرج، معسكر. ابن حمادوش بن عبد القادر، الدرر في أخبار كتاب السيد الإمام أبي الحسن أحمد بن فارس بن زكريا مخطوط مجموع به موجود بخزانة محمودي البشير، البرج، معسكر.

(2) G.Faure Biguet, op.cit. p: 321.

(3) أبو راس الناصر، المصدر السابق، ص: 26.

(4) معناه: كل محذوف يُثبت، وكل تعويض يترك ويبنى. وهي طريقة بعض القرّاء، على عكس المغاربة فهم يتبعون الرسم العثماني على رواية ورش عن نافع، وقد استعملنا هذا لما كنا طلابا في كتاتيب المنطقة واستعملنا الرسم المغاربي المتعارف عليه، وكان الشيخ لا يثبت المحذوف ولا يترك التعويض والبناء.

وأمّا زوجة جدّه: "السيدة زينب ذات المنصب الأفخم الجليل بنت الشيخ السيد عبد الجليل ذي المزايا العظام والمناقب الجسام"[1]. وجد والده هو: "الشيخ محمد، فقد كان فقيها -بأتم معنى الكلمة- في مجال الفقه والفتوى، ولاسيما في علم الفرائض"[2]. وأما أبوه الزاهد، الشيخ أحمد والذي سمي عليه والد أبو راس وهو مدفون بـ: "ويزغت"[3]، ووالده هو "الشيخ علي الذي كان من خيار العُبّاد وثقات العباد ... وضريحه بويزغت، ووالده: ولي الله سيدي عبد العظيم[4]، وضريحه موجود بالمنطق نفسها، ومن آباء هذا السيد العظيم ولي الله عبد الجليل وضريحه موجود بتربة ويزغت، إلا أنه لم يعرف على حد قول أبي راس[5].

ومن أجداد أبي راس كذلك الشيخ عبد الله الكبير "الذي ظهرت بركاته في كل مكان وضريحه موجود بقواير أزناين"[6]. وفي هذا المقام يذكر أبو راس حكاية طريفة يدعم بها حديثنا، يقول أبو

---

(1) أبو راس الناصر، فتح الإله ومنته في التحدث بفضل ربي ونعمته، المصدر السابق، ص: 26.
(2) علم الفرائض: جمع فريضة، ولغة: مأخوذة من الفرض بمعنى التقدير، لقول الله تعالى:"...ونصف ما فرضتم إلا أن يعفون أو يعفو الذي بيده عقدة النكاح..." سورة النساء، الآية: أي قدرتم، وشرعا: هو النصيب المقدر للوارث. السيد سابق، فقه السنة، مؤسسة الرسالة بيروت لبنان، ط 13 –1997 ، ج: 3، ص: 345.
(3) ويزغت: إحدى مناطق الوطن الراشدي، تقع في حجر كر سوط شرقا، حوالي ثمانية/ كلم ما بين وادي تاغية و ويزغت، وتحيط بها مجموعة من القبائل منها قبائل سيدي عمر وهو جدهم ، وقبائل الحشم، وكان بها في الفترة العثمانية حوالي ستون جامعا – حسب شهادة أعيان المنطقة.
(4) Op.cit. p: 323 G.Faure Biguet,
Ibid, p: 324. (5)
(6) هي عبارة عن أراضي فلاحية بالوطن الراشدي الغريسي، وبالتحديد بين منطقة أفكان وجبل كرسوط بمعسكر بالغرب الجزائري، وهي تربة صالحة بهؤلاء الأولياء والصالحين.-حسب شهادة أعيان المنطقة.

راس: "حكي عن العارف بالله أبي الحسن الشاذلي -رحمه الله-، وأرضاه عنا وعن ذريتنا أنه قال: إن كان الجيلي من قبلي يغترف من بحر واحد -فأنا بفضل الله- أغترف من سبعة أبحر، وبالجملة فإنهم ﷺ لا تنتهي مراتبهم، ولا تنقضي عجائبهم، ولا يخيِّب سائلهم وطالبهم، إنه محبوبهم وحبهم"[1]. وهذا كناية عن علو همتهم ومراتبهم، ومدى تنافسهم في مجال العلم والمعرفة.

وقد أكدّ أبو راس على شرعية نسبه، بانتمائه الحسني، ونسبه النبوي، وارتفاعه إلى البيت الكريم العلوي بقوله: "قد شهد لي بالشرف السنيّ والمنتمي الحسني والنسب النبوي، والبيت الكريم العلوي الشيخان الشامخان الراسخان، الأول: الشيخ المصطفى بن المختار، والثاني -تلميذه-: الشيخ سيدي عبد القادر بن السنوسي"[2].

وهذه النقطة مسألة جوهرية لم يتطرق إليها إلا النزر القليل من الباحثين[3]، هذا يعني أننا ملزمون بضبط نسب أبي راس، وإلا فما سبب هجرته؟ هل بدافع الرغبة العلمية أم الحجازية -الحج-؟ أم أن هناك سببا آخر؟ كل هذه الأسئلة تستوجب توضيحا وتفسيرا

(1) أبو راس، فتح الإله ومنته في التحدث بفضل ربي ونعمته، ص: 29.
(2) المصدر نفسه، ص:22.
(3) وأقصد بذلك أبو القاسم سعد الله الوحيد، الذي عالج هذه النقطة الخاصة بنسب أبي راس، فقدم تفسيرات وتوضيحات في هذه المسألة إلى جانب الأستاذ: الطيبي محمد. (طالع أبو القاسم سعد الله، تاريخ الجزائر الثقافي، المؤسسة الوطنية للنشر والتوزيع الجزائر، ج: 2، ص: 362.

وتبيين فحواها إلى القارئ والدارس للتاريخ، والباحث عن الحقيقة التاريخية التي تراودهم في كل زمان ومكان باختصار شديد.

ومن البديهي أن يكون الوطن الراشدي فضاء ثقافيا مزدهرا ومعطاء أثر بقوة في تاريخ الثقافة الجزائرية"[1]، لاسيما الجهة الغربية منها، وليس بأشمل ما تقدم به أبو راس الناصر[2] فهذه الترجمة تمثل اعترافا بتفرد أبي راس الناصر وبوزنه وتأثيره وأثره. وعليه فإننا أمام عالم لا ريب يمتاز ببعده وفكره الإسلامي، ولا شك أيضا في أهميته كمعلم مجدد في سياق التواصلية الثقافية التقليدية المتأصلة، وكعلم يرشد بأفكاره ويهدي بمواقفه، وغيرته على الوطن والدين.

وما كان ليتأتى هذا لرجل، إلا بعد أن اكتملت فيه أوصاف تجمع بين العلم والشجاعة والنسب. فقد اجتمعت فيه هذه المواصفات فعلا فكان بحق عارف زمانه وفريد عصره. ولقد اهتم أهل غريس

(1) الطيبي محمد، أبو راس الناصر العصر والعصارة، محاضرة ألقيت في ملتقى معسكر الذي خصص لمسيرة أبي راس وأعماله. ص: 02.

(2) وأبلغ مما ورد في كتاب طلوع سعد السعود للمزاري، حين أورد خبر وفاة أبي راس حيث قال فيه بنوع من الرثاء والإجلال بشخصه، حيث قال: "ذو التآليف العديدة والتصانيف الكثيرة المديدة، الشريف الأمجد، العلامة الأفرد، الضابط الجامع، الحافظ الدراكة المانع، المحقق اللافظ أبو راس محمد بن أحمد ... الناصر، الذي ليس له نظير بالراشدة ولا مثيل ابن عودة المزاري، طلوع سعد السعود في أخبار وهران والجزائر وإسبانيا وفرنسا إلى أواخر القرن التاسع عشر، تحقيق يحي بوعزيز، دار الغرب الإسلامي، بيروت لبنان، ط 1990، ج: 2، ص:143.

بالشرف والنسب وقدّسوه فكان أبو راس واحدا منهم، محاولة منه في إعادة ربط الصلة بالمنابع الثقافية الإسلامية العتيقة، لذا نجده يحيي النسب المحلي؛ أي علم الأنساب الذي أعاد إحياءه ابن خلدون[1]، فهذا التجديد لقضية النسب[2]، ربما يمليه نسبه هو نفسه، ولربما يمليه الخوف من اختلاط الأنساب، وتأثير ذلك عن الترتيبات الاجتماعية وسلم القيم، كما يمليه كذلك ذلك التشبث الواضح الذي نلحظه عند أبي راس بتقاليد العلم الإسلامي العربي، وبحثه ربما عن النهضة والانبعاث من خلال إحياء علوم الدين والعقل والنقل، وتوظيفها لشحذ العزائم وحشد الطلائع لمجابهة المد المسيحي اليهودي المتربص بديار الإسلام[3].

أمّا فيما يخص رحلته، والتي يعتقد بعض الباحثين أنها ليست رحلة حجازية أو علمية بقدر ما هي حتمية اضطرارية، للفرار من نقمة بعض السكان الساخطين عليه لأنه طعن في من ادعى

(1) هو عبد الرحمن بن محمد بن محمد بن الحسن ... بن وائل بن حُجْر، ولد بتونس في رمضان عام 1332هـ في عائلة تفخر بنسبها العربي كما قرأ القرآن الكريم ... ودرس بعد ذلك العلوم الشرعية من حديث وتفسير، وفقه على المذاهب الأربعة. عاصي حسني، ابن خلدون مؤرخا، دار الكتب العلمية، بيروت لبنان، ط 1-1991، ص ص: 07-16.

(2) قضية النسب الشريف تطرق إليها الأستاذ طيب شنتوف بكثير من التوضيح والتحليل، أنظر:

Chantouf Taib, Les Sherifismes Dans La Région De Mascara Au Milieu Du XVIII Siècle. Actes Du 1110 Congres D histoire Et De La Civilisation Du Maghreb TOM 1, ORAN 1983. p: 185.

(3) الطيبي محمد، العصر والعضارة، ص: 05.

معرفة النسب، وفي من انتسب بلا نسب[1]، وهذه قضية خطيرة تمس بالدرجة الأولى العائلات والأسر القاطنة بالوطن الراشدي، فأبو راس جرّد بعضهم وحلل أصولهم[2].

ومن هنا نجد أن اعتناء أبي راس بالنسب كان لمسألة علمية أمليت عليه، حيث أنه شاهد وسمع الاختلافات السائدة في رفع الأنساب وقلة الاعتناء الواضحة بجدية المسألة. وعلي فإن أبا راس لم يدخل حلبة رواية النسب من باب المشافهة المحلية ولم يهملها، وإنما قصد بذلك إعادة ربط الصلة بالمدون والتدوين[3]. فألف وعلى شاكلة كل من المسعودي وابن خلدون وابن حزم، كتابه: "مروج الذهب في نبذة النسب، ومن إلى الشرف انتهى وذهب"[4]. وهو يقصد بذلك النسب عامة والنسب الشريف خاصة.

ولقد كان أبو راس مولعا بالأنساب، فأكثر من ذكر القبائل ومواطنها وفروعها وأصولها، بل وصل به الأمر أن ألف كتابا في

---

(1) المرجع نفسه، ص:5.
(2) وهنا يشير أحد الباحثين: "أنّ أبا راس لما ألف كتابا في النسب، فإنه حلل فيه أصول أهل الشرف والنسب وجرد بعضهم منه، فقرأه على تلميذه وعند سماع هذا الأخير كتاب شيخه أخذه وغلاه في الماء"(2). وهو ما جلب إليه نقمة السكان كما سلف، ولذا كان لزاما عليه أن يفر.
(3) الطيبي محمد، العصر والعصارة، ص: 05.
(4) ابن سودة، دليل مؤرخ المغرب الأقصى، دار الكتاب، الدار البيضاء، المغرب الأقصى، ج:2، ص: 106.

نسب الجانّ وسمّاه: "تحفة الإخوان في أرهاط وقبائل الجانّ"[1]، مما زجّ بصاحبنا في مواجهات واضحة أولا مع محترفي النسب، وثانيا مع ممن انتسب بلا نسب كما سبق ذكره.

وفي الاختلافات التي صارت قاعدة، يقول أبو راس الناصر ناعيا قلة الاهتمام الجاد بالأنساب، قائلا: "واعلم أن امتياز النسب اندرس في هذا الزمان، فلا يكاد يتفق فيه اثنان حتى يقع فيه اختلاف كثير في الأمة الواحدة، باختلاط الأنساب وتباين الدعاوى"[2]. ويضيف أبو راس قائلا: "يتعذر معرفة نسب الأشراف في وقتنا –أي الفترة الأخيرة من العهد العثماني- لاندماجهم في البربر والعرب، وقد نفى الكثير من الأشراف لهذا السبب تمادوا –رضي الله عنهم- على إخفاء نسبهم إلى أن ظهرت الدولة المرينية[3]، رحم الله رجالها فسارت سيرة العدل والإنصاف، فكانت هي السبب في رجوع الأشراف لمحل سلفهم وظهور نسبهم"[4].

(1) يحي بوعزيز، الإنتاج الفكري والأدبي للشيخ أبي راس الناصر، المجلة التاريخية المغربية، تونس، عدد 53-54، سنة 1989م، ص: 245.

(2) مقدمة عجائب الأسفار، ورقة رقم 03. مخطوط المكتبة الوطنية تحت رقم: 3332، ومخطوط البشير محمودي.

(3) راجع: ابن خالد الناصري، الاستقصاء لأخبار دول المغرب الأقصى، الدولة المرينية، دار الكتاب، الدار البيضاء، المغرب الأقصى ،ج4، ص: 3-4.راجع:إسماعيل ابن الأحمر، روضة النسرين في دولة بني مرين، تحقيق عبد الوهاب ابن منصور مؤرخ المملكة، المطبعة الملكية، الرباط،ط 1991،2.

(4) علي حشلاف، سلسلة الأصول في شجرة أبناء الرسول، ص: 37.

ومن هنا كان هذا الاعتناء واقعا يجسده وفاء أبي راس لفكرته، فهو لا يكاد يكتب كتابا إلا وأظهر فيه حافظته عن الأنساب العربية والبربرية[1]. بعبارة أخرى أنّ أبا راس كان مرجعا في عمليات تحقيق النسب وكشف المركب والمصطنع، فأزعج كما كان متوقعا بعض الأطراف فأزعجوه حيا وميتا[2].

ولذا كان البحث عن مصادر أصول النسب وتفرعها وتواترها يدفعنا أكثر ويشوقنا إلى التمعن في قريحة أبي راس، والتي تفضي إلى نَفَس علمي فياض وحس تنظيري مؤكد، يوحي إلى الدارس مدى اعتماد أبي راس إلى منهج الدقة والتحقيق في تخريج أصول النسب الشريفة وفروعهم.

3- طلبه للعلم

لقد عان أبو راس كثيرا منذ صغره، وهو ما كان حافزا كبيرا في مسيرته العلمية المليئة بالمعاناة والحياة الصعبة بعد فقدان والديه. وكما قال بعض المحللين النفسيين أن هذه المعاناة من فقاد الوالدين أو أحدهما أو الفقر من شأنه تكوين شخصية متكاملة الجوانب لها وزنها العلمي والمعرفي. وللتعرف أكثر على هذه الشخصية الكبيرة، نتناول جزء من حياته معاناته.

(1) الطيبي محمد،العصر والعصارة، المرجع السابق، ص: 06.
(2) نفسه، ص:06.

نشأته

عاش أبو راس الناصر حياة اليتم منذ الصغر، فقد والدته زولة وهو صغير بسهل متيجة[1] أين استقرت بها عائلته[2] وهي التي وصفها بقوله:" وهي الصالحة الكاملة التقية، العاملة، أطول النساء يدا وأكملهن هديا وهدى كانت من أجل نساء البدوية، وكان يضرب بها المثل في السخاء والصلاح..."[3] وبعد موتها انتقل به والده إلى منطقة مجاجة[4]، أين اشتغل بتعليم الصبيان وقراءة القرآن. وهناك تزوج من عدة نساء(والد أبي راس) غير أنّ أبا راس لم يرض بوالدته بديلا، فراح ينفر نفورا من زوجات أبيه إلى أن توفي والده وهو في سن الثامنة[5] بمكان يعرف بأم الدروع[6].

وهنا عاش أبو راس فترة اليتم الحقيقي، فلم يجد من يكفله إلا أخاه عبد القادر الذي يكبره بشيء قليل وليس أخوه الأكبر ابن عمر كما أشرنا سابقا. فترعرع بين يدي أحضان أخيه عبد القادر، وأخذ

---

(1) متيجة: بفتح أوله وكسر ثانيه، وتشديده، ثم باء مثناه، من تحت ثم جيم، بلد في أواخر إفريقية من أعمال بني حماد.قال البكري: "الطريق من أشير إلى جزائر بني مز غناي، ومن أشير إلى المدية وهي بلد جليل قديم ...وهي مدينة على نهر كبير، ولها مزارع ومسارح. ياقوت الحموي، معجم البلدان، دار صادر بيروت، لبنان، ط1986، ج5، ص:53.

(2) محمد سي يوسف، دراسة مخطوط عجائب الأسفار لأبي راس الناصري، مجلة تاريخ وحضارة المغرب، ع1974،12، ص:135.

(3) حبار مختار، المرجع السابق، ص:01.

(4) أبو القاسم سعد الله، المرجع السابق، ص:87.

(5) Ould Aboucha, op.cit, p15.

(6) أم الدروع: قرية من قرى مجاجة بنواحي الشلف ، وعرفت منذ القديم بالعلم وكثرة العلماء و الفقهاء وحاملي كتاب الله ومنها زاوية المجاجي التي كانت مركزا للمجاهدين ضد الكفار وكون العثمانيين كانوا يعظمون المجاجي وسلفه.تاريخ الجزائر الثقافي، المرجع السابق،ج1،ص:199.

منه نصيبا وفيرا من العلم، حيث اصطحبه معه إلى المغرب الأقصى أين حفظ القرآن الكريم وأتقن أحكامه فهما واستيعابا[1].

وهنا يقول أبو راس:" فأخذنا بعد موت أبينا –أي أخوه الأكبر ابن عمر– وانقلب بنا إلى المغرب، فأخي يمشي وأما أنا فيحملني على عاتقه لصغري، فكنا معه في الشرائع، فقرأت القرآن الكريم في حال صغري، ثم قرأت أحكام القرآن وحفظتها على ظهر قلبي"[2] بروايتي ورش وقالون.

وبعد عودته من المغرب اتجه إلى معسكر وبالضبط بالقيطنة[3] التي كانت أكبر معهد علمي لدراسة علوم الشريعة بعدها اتجه إلى مازونة[4] والتي كانت هي الأخرى مركزا ثقافيا نشيطا لتحصيل العلوم الدينية والدنيوية وغيرها. فبقي في مازونة طيلة ثلاث سنوات بعدها عاد إلى القيطنة وتتلمذ على يد أحد شيوخها البارزين

---

(3) مولاي بلحميسي، أبو راس الناصر، محاضرة ألقيت في ملتقى أبي راس الناصر بمعسكر عام 1997، ص:01.

(2) أبو راس، فتح الإله ومنته في التحدث بفضل ربي ونعمته، ص:19.

(3) القيطنة: هي قرية على بعد ثمانية وعشرين كلم من مدينة معسكر، مقر أسرة الأمير عبد القادر، اختطها جده مصطفى بن المختار سنة 1206هـ وفيها درس شيخنا ابو راس، وهي اليوم بلدية تابعة لدائرة أبو حنيفية. مولاي بلحميسي، الجزائر من خلال رحلات المغاربة في العهد العثماني، ش.و.ن.ت، الجزائر،ط1979، ص:3

(4) مازونة: بلدة قديمة أسسها الرومان، هكذا يقول الأسباني مار مول الذي جال في المغرب خلال القرن السادس عشر ويعتمد في هذا على وجود الآثار الرومانية واللوحات المنقوشة، وتؤكد البحوث الأركيولوجية ان مازونة كانت موجودة في عهد الرمان، على خلاف ابن خلدون الذي يرى أن مازونة أسسها عبد الرحمان رئيس مغراوة في القرون الثاني عشر تقريبا.أما عن الاسم: فقد كثرت الروايات فهناك من يرى أن مازونة تعني أرض الرجال الأقوياء، وهناك من يرى أن مازونة نابعة من موسن بلدة رومانية. هني عبد القادر، مدير إعدادية مازونة القديمة، مازونة،1983/10/31.

آنذاك وهو الشيخ عبد القادر المشرفي الذي كانت شهرته العلمية الواسعة تملئ ربوع الوطن داخله وخارجه، ولازمه حتى وفاته عام 1778م[1].

وما يميز حياة أبي راس هو الفقر الدنيوي[2] المادي والغنى العلمي المادي في أواخر حياته[3]. لقد "ذاق أبو راس مرارة الجوع والألم و اليتم ومارس الشحاذة ومشى بين الناس حافي القدمين في حدود العاشرة من عمره، عاري البدن، وغسل ثياب غيره، وفلا القمل، وسكن في خيمة شعر، فذاق شظف العيش والجفاف العقلي، حيث قال: "ثم رأيت أن آفات العلم بادية، وتذكرت قول الأمام الشافعي-رضي الله عنهما- في وصيته" لا تسكن الريف، فيذهب علمك وتهتك حرمتك"[4]. وهناك تزوج بامرأة من أولاد الشيخ محمد بن يحي، واستقر بمعسكر ليشق طريقه وسط مؤامرات علماء ضعاف النفوس، يتقاتلون على الفتات، وصادف عهد الباي محمد الكبير الذي انتعشت على عهده الحياة العلمية قليلا، كما حماه وقربه الشيخ عبد القادر المشرفي كما أسلفنا الذكر الذي اكتشف فيه تلميذا ذكيا له حافظة نادرة وتعطش للعلم"[5].

---

(1) Ould Aboucha, opcit; p:15

(2) أبو عمران الشيخ، أبو راس وظروف الحياة، محاضرة ألقيت في ملتقى أبي راس عام1997، ص:01

(3) بشير بويجرة محمد، التسامي و العبقرية عند أبي راس، قراءة فتح الإله وفق المهج النفسي، جريدة الجمهورية، عام2001، ص:04.

(4) أبو راس، فتح الإله ومنته في التحدث بفضل ربي ونعمته، المصدر السابق، ص:22.

(5) أبو عمران الشيخ، أبو راس الناصر ورحلته الثقافية، ص:01.

وبناء على المعطيات، فقد أثبتت لنا المصادر أن الطفل "أبا راس" وجد نفسه وجها لوجه مع الحياة ومع الواقع الجزائري الذي كان في هذه الفترة (1737-1823م) مليئا بالمآسي والغبن، وبالأخص في المناطق الريفية "ومن هنا تسهل عليه استيعاب الجدلية المحكمة في دواليب الواقع الذي تتحكم فيه ثلاثة عناصر وهي اعتقاد ديني مثالي حتى بات فيه الاعتقاد بالمعجزات لدى بعض الأولياء"[1].

أما العنصر الثاني فهو الإحساس بالعجز وانتشار روح التواكل والابتعاد عن دعائم العلم والمعرفة الصحيحة، والعنصر الثالث يرجع إلى الواقع المعادي المعاش الذي كان كله فقر وغبن واحتياج، ولم يكن هذا العنصر خاصا بالطبقات الاجتماعية على أساس المصالح و الانتماءات وهو ما يطلق عليه " بالصراع الاجتماعي الطبقي"[2] بل كانت تلك الأمراض معشعشة حتى داخل الطبقات الفقيرة وبين فئة الطلبة الذي يصف أبو راس حياته معهم، وموقفهم منه حين يقول: "وأسأل لهم من البيوت ما يأكلون، وان عجزت عن السؤال في البيوت بعض الأيام ضربوني، وقد استمرت عشر سنين عريانا، لا لباس لي إلا خرق كالعدم، وما لبست نعلا إلى أن قرب صوفي..."[3].

(1) بشير بويجرة محمد، التسامي والعبقرية عند أبي راس، ص:3.
(2) بشير بويجرة محمد، التسامي والعبقرية عند أبي راس، ص: 02.
(3) أبو عمران الشيخ، المرجع السابق، ص: 1و2، وانظر أبو راس، فتح الإله، المصدر السابق، ص: 19.

وهكذا تحت تأثير فعاليات الثالوث الوجودي[1] تتلمذ الطفل أبو راس على مقاعد الفعل التجريبي المؤسس على التحصيل وعلى التحدي، وكأنه بذلك قد خذا حذو كثير من العباقرة والعظماء الذين بنيت شخصيتهم بناء قويا منذ الطفولة، وتحت تأثير ظروف مشابهة لتلك الظروف التي نبتت فيها شخصية أبي راس من يتم وغبن وفقر.

ولقد أكد علماء النفس وأصحاب نظريات الإبداع والعبقرية أن لهذه الظاهرة أهمية قصوى، وبخاصة حين اعتبروا أن مرحلة الطفولة المملوءة غبنا وأن موت الأم، وسوء الوضعية الاجتماعية وكذا سوء أخلاق الأب كلها تدخل ضمن البذور الأولى الأساسية للعبقرية والتفوق تارة وهذا ما يهمنا، وإلى القلق والاضطراب والأمراض النفسية تارة أخرى[2]. ومما يدعو إلى الدهشة هو أن أبا راس رغم صغر سنه كان يقرأ ويسلك[3] ألواح الطلبة، لأنه كان حفيظا.

أمام هذه البوتقة الهائلة من المعاناة النفسية، وأمام تلك الاضطرابات الاجتماعية إلا أن هذا لم يمنع من مواصلة أبي راس

(1) بشير بويجرة ، المرجع السابق، ص: 02.
(2) بشير بويجرة، معاناة أبي راس الناصر، ص: 02.
(3) معناها تصحيح ألواح الطلبة من وضع علامات الوقف والإمالة وحذف الألف وإثباتها تارة أخرى، وهي طريقة تستعمل في الكتاتيب ومازالت إلى حد الآن، وهذا قصد حفظ كتاب الله على الطريقة الصحيحة دون زيادة أو نقصان.

لمسيرته العلمية والتي لطالما كان يحلم بها بطريقة لاشعورية، وإحساسه الدائم بالغبن دفعه من تحقيق أحلامه وتجسيد طموحاته على أرض الواقع وبالأخص في عهد الباي محمد بن عثمان الكبير.

لقد كان أبو راس من الذين عانوا وجاهدوا في طلب العلم وتحصيله منذ الصغر. فكانت بدايته بحفظه للقرآن الكريم كله، واستيعاب العلوم العربية والإسلامية على علماء وفقهاء عصره[1]، في سن العاشرة[2]، وكانت بدايته من الوطن الغريسي (الراشدي) بمعسكر، أين زاول تعليمه بها، ومما تجدر الإشارة إليه هو أنه ساعدته في ذلك عدة عوامل منها: أسفاره المتعددة (رحلاته) ونهله من شيوخ عدة، إلى جانب تشجيع الباي له، وهناك عوامل ذاتية قائمة بنفسها منها: اهتمامه الشخصي بالكتابات التاريخية والفقهية، وغيرها من تآليفه المتعددة والمتنوعة. وأخيرا حصوله على إجازات مختلفة من علماء أجلاء شهدوا له بحسن الخلق والعلم والسيرة، وعليه يمكننا أن نتطرق لكل نقطة على حدا؛ حتى نفهم

(1) يحي بوعزيز، الإنتاج الفكري والأدبي للشيخ أبي راس الناصري المعسكري، المجلة التاريخية الغربية، الجمهورية التونسية، السنة السادسة، حتى 1989، عدد 53-54، ص: 245.

(2) عبد القادر المستغانمي، مستغانم وأحوالها عبر العصور، المطبعة العلاوية، مستغانم، ط1، 1986، ص: 46.

مدى حرص أبي راس على طلبه للعلم والانتفاع به وهو ما يجلب له شهرة واسعة فيما بعد.

لقد كان عصر أبي راس الناصر عصر نهاية التأليف والابتعاد عن حياة العلم وحب الاطلاع، بسبب الاضطرابات والفتن الداخلية التي أثرت بشكل مباشر أو غير مباشر على الحياة الثقافية في تلك الفترة، وبالأخص على حياة المجتمع ككل، فكان من الطبيعي أن تتحول اهتمامات الناس من كتاب ومؤرخين وباحثين، وحتى الملوك والسلاطين من حياة العلم المعرفة الى حياة الجهاد والقضاء على كل ما يزعزع استقرار البلاد.

2- رحلاته العلمية

خصص أبو راس الجزء الثاني والثالث من كتابه "فتح الإله ومنته في التحدث بفضل ربي ونعمته" لرحلاته، وشيوخه الذين أزالوا عنه قشب أوساخه، فالباب الثاني تحدث فيه عن أشياخه وعنونه تحت اسم: (ذكر أشياخي النافضين عني قشب أوساخي شريعة وحقيقة وقرآنا وطريقة..)[1]، أما الباب الثاني فتعرض فيه إلى رحلاته وعنونه تحت اسم: (رحلتي للمشرق والمغرب وغيرهما ولقاء العلماء الأعلام وما جرى لي معهم من المراجعة

(1) محمد عبد الوهاب، أبو راس الناصري من خلال بعض مؤلفاته، محاضرة ألقيت في ملتقى أبي راس بمعسكر عام: 1996م، ص: 06.

والكلام...)[1]، وما يهمنا هنا هو رحلاته والعراق العلمية التي امتدت عبر الجزائر والمغرب وتونس ومصر والشام والحجاز...، والتي التقى خلالها مع أكابر العلماء والفقهاء وهي مرحلة علم واستطلاع لأخذ العلم من هؤلاء وجاد لهم وأعطاهم.

وعلى هذا الأساس يمكننا أن نقسّم رحلة أبي راس إلى قسمين: رحلات علمية داخل الجزائر وأخرى خارجها، حتى نفهم مدى عمق هذه الرحلات كالعلمية في حياة أبي راس العلمية.

فمن رحلاته العلمية داخل الجزائر حاضرة معسكر، باعتبارها المسيرة العلمية الأولى على يد عالمها الجليل آنذاك عبد القادر المشرفي، الذي درس عليه أبو راس ألفية ابن مالك على شرح المكودي، والتي جعل عليها حاشيتين، صغرى وكبرى، كما قام بانجاز تأليف عند إتمام الدراسة، والذي يعرف في عصرنا الحالي برسالة التخرج، وكان مؤطره في ذلك دائما الشيخ المشرفي الذي كانت شهرته العلمية واسعة النطاق في ذلك العصر.

---

(1) أبو راس، فتح الإله ومنته في التحدث بفضل ربي ونعمته، المصدر السابق، ص: 91.

ثم انتقل أبو راس بعدها إلى القيطنــة[1] لمزاولــة تعليمــه ثــم إلى البرج[2]، وبعدها إلى غليزان[3] ومن ثمّ انصرف إلى مازونة والتي كان صيتها يجول في تلك الفترة ومكث حوالي ثلاثة سنوات حيث وصلها أول صـومه، فقـال: "ثـم سـافرت أول صـومي (بمازونة)...، فلقيت على صغري مشقة المشي، لكن ذلك شأن أهل السفر للعلم"[4].

ليرجع بعدها إلى معسكر ويشمر عن ساعديه للتدريس، ثم طابت نفسه للرحيل إلى الجزائر العاصمة سنة 1789م[5]، تعـرف خلالـه بعدة علماء وشعراء وكتاب، والتقى بمفتيهـا الشـيخ محمـد بـن جعدون[6]، وكذلك فقيهها الشيخ محمد بن مالك وتناقشا وتجادلا حتى الفجر وهو ما يرويه عن نفسه حيث يقول: "... فضـيفني وجمـع

---

(1) القيطنة: هي قرية على بعد 28كم من مدينة معسكر، مقر أسرة الأمير عبد القادر، اختطها جده مصطفى بلمختار سنة 1206هـ وفيها درس شيخنا أبو راس، وهي اليوم بلدية تابعة لدائرة أبو حنيفية. أنظر: مولاي بلحميسي، الجزائر من خلال رحلات المغاربة في العهد العثماني، ش.و.ن.ت، الجزائر، ط 1979.

(2) البرج: قرية صغيرة تقع شمال شرق معسكر على بعد 24 كم، وحولي 15 كم شمال تيغنيف، وكانت تعرف من قبل ببرج عياش، ثم أصبحت تعرف فيما بعد ببرج المخفي، نسبة إلى قدور بلمخفي الرجل الذي قطنها في عهد الأتراك. أنظر:

P. Raoul. Notice sur el-bordj, depuis la dernière période de l'occupation turque jusqu'a nos jours, 1899, pp: 17-171.

وكذلك محمد الصغير، ظهور سعود الدراري في أخبار المرحومين قدور بلمخفي والحاج محمد المزاري، مخطوط بحوزة الشيخ محمودي البشير.

(3) غليزان: مدينة داخلية وفلاحية في نفس الوقت بسبب وفرة مياهها التي منبعها وادي مينا، لها سوق أسبوعي يوم الخميس ...، وهي بمحاذاة كل من: ماونة ومستغانم وقلعة بني راشد.

Richard et J. dalbomme, les guides bleus, Librairie nachatte Tunis, Paris.1930.p94

(4) فتح الإله، المصدر السابق، ص: 20.

(5)Algérie Actualité, op.Sit. p: 15.

(6) أنظر ترجمته في شيوخ أبي راس.

العلماء عليّ، وتمادوا وسألوني أسئلة صعاب عظيمة فتفاوضنا فيها مفاوضة كبيرة إلى قرب الفجر"[1]. كما نزل بقسنطينة والتقى بعالمها عبد الكريم محمد الفكون[2]، هذا بالنسبة لرحلة أبي راس داخل الجزائر وأهم المدن التي زارها.

أما بالنسبة للرحلة العلمية خارج الجزائر فهي تكتسي بالتنوع والأهمية البالغة في تكوين أبي راس وتوجهه العلمي المحض. فكانت البداية من فاس، وهي رحلات متواصلة لطلب العلم والمعرفة، وكان ذلك عام 1801م[3].

ولقد حج شيخنا مرتين أولاهما[•] كانت في سنة 1204هـ/1790م وبعد أكبر رحلة قام بها أبو راس التقى خلالها بشعراء وكتاب وعلماء أفادوه كثيرا. فالتقى بعلماء الجزائر قسنطينة تونس مصر الحرمين الشريفين والشام، ومن جملة الذين التقى بهم، وخصهم بالذكر، والثناء: شيخه أبو الفيض محمد مرتضى الزبيدي وقال في لقائه معه: "ثم دخلنا مصر فلقيت منيتي وغاية مطلبي

---

(1) أبو راس الناصر، فتح الإله ومنته في التحدث بفضل ربي ونعمته، ص: 121.
(2) أنظر ترجمته في شيوخ أبي راس.
(3)Algérie Actualité, op.sit. p:15.
(•) في هذه الحجة حج أبو راس على بغلته الحمراء، وعندما أراد أن يدخل من باب السلام ويأتي بطواف القدوم قال له ولد أطوف بك، فقال أبو راس لست بحاجة إليك، فاصر الولد وقال له: "أطوف بك ولو كنت أبا راس المعسكري"، فقال أنا أبو راس فطاف الولد بالشيخ. بوعمران بهلول، لقاء يوم 2002/01/13 بمعسكر.

وبغيتي، شيخنا أبو الفيض المرتضي تغمده الله برحمته، قرأت عليه أوائل عدة علوم وأجازني بالباقي"[1].

وأثناء عوته من الحج عام 1205هـ سمع وهو في تونس بالحرب بين المسلمين والأسبان بسبب وهران، فأسرع بالعودة ومساندة إخوانه في الجهاد، وحينها شرع في تأليف كتابه الموسوم بـ"عجائب الأسفار ولطائف الأخيار". والذي فرغ منه في السنة الموالية، أي في عام 1206هـ وقد أشار إلى هذه الحرب في قصيدته التي يقول فيها:

أخبارها طارت في الأرض قاطبة لاقنا في روجات من وراء قابس[2]

وعند رجوعه من الحج تقلد وظائف الفتوى والقضاء والخطابة. لكنه سرعان ما عزل منها عام 1211هـ[3]. وقد خصص هذه الأحداث –درقاوة– بكتاب سماه: "درء الشقاوة في فتنة درقاوة". وأشار إلى ما أصابه في هذه الحادثة في رحلته فقال: "ثم عمتنا فتنة

---

(1) أبو راس الناصر، عجائب الأسفار، مخطوط المكتبة الوطنية الجزائرية، رقم: 1633، ص: 15.
(2) أبو راس، عجائب الأسفار ولطائف الأخبار، مخطوط المكتبة الوطنية رقم:1632، ص: 37.
(3) لمعرفة هذه الأسباب، اعتمدنا على قول الباحث والعالم الجليل المهدي البوعبدلي رحمه الله في مقدمة كتاب كتاب –الثغر الجماني- حين يقول: "وقد جرت ثورة درقاوة على الحكم التركي بالجزائر ويلات، ولصبغتها بالصبغة الدينية صار الأتراك يكيلون التهم لجميع رؤساء الدين ... ، لا فرق بين المنتسبين لدرقاوة أو لغيرها من الطرق الدينية الأخرى، ولم ينج من هذه التهم حتى الموالون للأتراك مثل العالم السلفي المؤرخ أبو راس الناصر، فأصابته بعض شظايا هذه التهم وعزل من مناصبه الرسمية." أحمد بن سحنون الراشدين الثغر الجماني في ابتسام الثغر الوهراني، تحقيق وتقديم المهدي البوعبدلي، مطبعة البعث، قسنطينة، الجزائر، ط 1973، ص: 46.

درقاوة، فاتصلت علينا أواصر النكبات والبليات من الخوف والجوع والروع الذي في الفؤاد مودوع"[1].

وأثناء رحلة الحج هذه وبالضبط بأم القرى، اجتمع بعلمائها وفقهائها واستفاد منهم وناظرهم في بعض الأحيان.بعدها توجه إلى المغرب ووفد على السلطان مولاي سليمان[2] والتقى بعلمائها وفقهائها، وهناك حضر تشييع جنازة العالم الكبير الشيخ الطيب بن كيران[3]، ويصف لنا شيخنا أبو راس ذلك المشهد فيقول: "ولما توفي رحمه الله اهتزت لموته فاس، وحزن لموته كل الناس، وصاروا يرثونه ويمدحونه..."[4]. وكانت رحلة الحج الشيخ الثانية عام 1226هـ/1872م ولم يعد إلا في السنة الموالية، وهي رحلة ثانية إلى المشرق العربي ومما لا شك فيه أن هذه الحجة قد عادت عليه بالفائدة العلمية الكبيرة بعد أن أفنى من عمره عشرين سنة بعيدا عن الاتصال بالعلماء المشارقة، بما فيهم علماء تونس ومصر فكانت مهد نزوله ومهبط علمه مدينة طيبة –مدينة الرسول ﷺ– التي قال في شأنها: "ثم رحلت لطيبة بعد هذه الغيبة، وهي

(1) محمد سي يوسف، دراسة مخطوط عجائب الأسفار ولطائف الأخبار، لأبي راس الناصر، مجلة الدراسات التاريخية، معهد التاريخ، جامعة الجزائر، العدد 2، ط 1986، ص: 136.

(2) هو أبو الربيع سليمان بن محمد بن عبد الله بن إسماعيل العلوي سلطان المغرب الأقصى، بويع بفاس سنة 1206هـ/1797م، وتوفي بمراكش سنة 1231هـ/1816م. فتح الإله، المصدر السابق، ص: 37.

(3) هو أبو عبد الله الطيب بن محمد بن عبد المجيد بن عبد السلام بن كران، كان احد أعلام زمانه في الحفظ والتحصيل والإتقان، له مؤلفات عديدة في مختلف الفنون، توفي سنة 1227هـ/1812م. المصدر نفسه، ص: 125.

(4) Algérie Actualité, op.cit. p : 15

المدينة المشرفة على من تشرفت به أفضل الصلاة والسلام، فيا حبذا بمهبط الوحي ونزول جبريل عليه السلام وتشريع الأحكام من حلال وحرام ونعم المهاد والجيوش والسرايا للجهاد، وضريح سيد المرسلين والكونين والثقلين والفريقين من عرب وعجم"[1].

كما التقى خلالها بعلماء أجلاء من مختلف الأمصار والبقاع، وزار أيضا قبر النبي الشريف وصاحبيه أبي بكر وعمر –رضي الله عنهما– وأهل البقيع من الصحابة رضوان الله عنهم. وكانت له أبحاث ومناظرات متكررة مع علماء عدة، بعدها رحل إلى الشام وتكلم مع علمائها في مسائل متعددة منها مسألة الحبس ليدخل بعدها الرملة[2] والتقى بمفتيها وعالمها فغزة حيث فاتح أهلها وناظرهم في مسائل العلم المختلفة.

لقد كان لهذه الرحلات والأسفار، أثر بارز في تكوين شخصية أبي راس العلمية، مما جعلته يتعرف على علماء، وفقهاء، ويجري معهم مناظرات مختلفة كان لها وقع كبير على إنتاج أبي راس المتنوع.

(1) أبو راس، فتح الإله ومنته في التحدث بفضل ربي ونعمته، ص: 119.
(2) الرملة:مدينة عظيمة وكانت قصبتها قد خربت الآن، وكانت رباطا للمسلمين وهي في الإقليم الثالث ...بناها سليمان بن عبد الملك واستنقذها صلاح الدين من يد الإفرنج سنة 583هـ . الحموي، معجم البلدان، ج3، ص:69.

4- شيوخه وإجازاته

إنّ شخصية أبي راس شخصية فذة تعتز بها الدولة الجزائرية على وجه العموم والجهة الغربية من البلاد على وجه الخصوص، لما تمتاز به من دقة وتحريات للتواريخ الهامة ولا سيما فترة التواجد العثماني بالجزائر من جهة وصراعها مع الأسبان من جهة أخرى ومما لا شك فيه فإن هذه الشخصية الكبيرة في أذهان المؤرخين والباحثين، والصغيرة بالنسبة للمنكرين والغير المبالين.

فإنّ أبا راس كسابقيه من العلماء تتلمذ على يد عدة شيوخ كان لهم الفضل الكبير في بروز شخصية فريدة من نوعها استطاعت بذكائها وكتاباتها التاريخية أن تحظى باهتمام الخلفاء في عصره ثم المؤرخين والباحثين من بعده. وقد أخذ أبو راس العلم على يد مجموعة من الشيوخ والعلماء والفقهاء الأجلاء الذين أثروا في ملكة أبي راس الفكرية والمعرفية، فأجيز وأجاز.

شيوخه

لعلّ من أبرز الشيوخ والعلماء الذين كانوا مصدر معرفة أبي راس الناصر، والذين كانوا بمثابة الحصن الحصين لتكوين ملكة أبي راس العلمية والمعرفية. هؤلاء العلماء الذين تفانوا في تعليم أبي راس والحرص على تكوين شخصيته. والذي بلغوا حوالي

واحد وأربعين عالما، أخذ عنهم فنونا مختلفة[1]. ولعل من أهمهم نذكر منهم على سبيل المثال:

1- والده الشيخ أحمد بن أحمد: كما تقدم ذكره هو الشيخ احمد بن احمد بن الناصر ينتهي نسبه إلى السيدة فاطمة بنت محمد ﷺ (عبر خمسة عشر جدا)، أخذ عليه –أبو راس– معظم المصحف الشريف بداية من سورة الانفطار ﴿إِذَا ٱلسَّمَآءُ ٱنفَطَرَتۡ ۝١﴾[2] إلى غاية الآية: 253 من سورة البقرة والتي مطلعها ﴿تِلۡكَ ٱلرُّسُلُ ...﴾. وما شد انتباهي هنا وأنا أتفحص سيرته الذاتية، أن تواجده وسط أسرته القرآنية هو الذي جعله يختصر المراحل الأولى من تعليمه حتى الحروف منها، فحفظ القرآن الكريم عن ظهر قلب[3].

2- الشيخ عبد القادر المشرفي: هو الشيخ عبد القادر بن عبد الله المشرفي الذي كان يدعى بشيخ الجماعة وإمام الراشدية، ولد ونشأ بقرية الكرط قرب ولاية معسكر، تثقف على يد علماء المنطقة وبعدها عين مدرسا بمعهد الشيخ محيي الدين في زاوية القيطنة بوادي الحمام مدة من الزمن، وقد شارك في مقاومة نصارى

(1) راجع: جورج دولفان، القول الأحوط في علماء المغرب الأوسط،مخطوط المكتبة الوطنية الجزائرية، رقم:3026،ص ص:18-19.
(2) الانفطار:01.
(3) أبو راس، فتح الإله ومنته في التحدث بفضل ربي ونعمته، ص: 42.

الإسبان بوهران[1]، وألف رسالة شهيرة كما عدد ونـدد بالقبائل المتعاونة معهم، توفي رحمه الله سنة 1192هـ/1778م بضواحي معسكر.

3- الشيخ السيد العربي بن نافلة: هو الشيخ بن العربي بن نافلة الذي أفنى عمره بين تلاوة القرآن ودراسة العلم[2]، صاحب الأصول والفروع، حافظ لمعاني شيخنا سيدي خليل بن إسحاق المالكي، قرأ عليه المختصر ثلاث ختمات في ثلاث سنوات كما درس شيخنا على يد ابنه السيد أحمد بن نافلة، فكان هذا الأخير يفهمه كل ما أشكل عليه من فهمه في مجلس أبيه[3].

4- الشيخ محمد الصادق بن أفغول: كان من أجلاء أشياخي شيخنا، خبيرا بعلم الشريعة جامع بين العلم والدين، صاحب مدرسة مازونة الشهيرة، يقول عنه أبو راس: "انتهت إليه رئاسة التدريس، وشدت إليه الرحال من زواوة وغريس". كان جامعا للفنون وعلومها، وبارعا في معرفة الحديث على أهله منفردا بهذا الفن النفيس في زمانه.

(1) فهرس الفهارس، المصدر السابق، ج2، ص: 577. يحي بوعزيز، أعلام الفكر والثقافة، ص: 231.
(2) فتح الإله ومنته في التحدث بفضل ربي ومنته، المصدر السابق، ص: 44.
(3) عبد الوهاب، المرجع السابق: ص: 45.

5- الشيخ محمد بن جعدون قاضي مدينة الجزائر: هو شيخ الجماعة بالجزائر ابن عبد الله محمد، يقول عبد الحي: "وقفت على إجازة الشمس له الحنفي له بالطريقة بتاريخ 1171م، وله ثبت نسبه له الشيخ السنوسي"[1].

6- الشيخ القاضي عبد الرحمن التلمساني: هو الشيخ محمد بن عبد الرحمن التلمساني القاضي من نسل عالم المذاهب الأربعة الشيخ أحمد بن الحاج المانوي، رحل إلى مصر أخذ عن الستمان ومحمود الكردي.

7- الشيخ المفتي أحمد بن عمار: هو الشيخ أحمد بن عمار بن عبد الرحمن بن عمار الجزائري، اشتغل بالحديث والتاريخ، ولد ونشأ بمدينة الجزائر وولي الإفتاء بها، له الرحلة الحجازية وغيرها من المؤلفات[2].

8- الشيخ محمد بن قاسم: هو شيخنا الدراكة المشارك الفهامة البركة الماجد بن الأمجاد أبو عبد الله محمد بن قاسم بن محمد بن عبد الحفيظ بن هاشم القادري الحسني الفاسي[3].

9- الشيخ محمد الأمير: هو شيخ الشيوخ، علامة الديار المصرية أبو عبد الله محمد بن أحمد بن عبد القادر الأمير المالكي

---

(1) محمد عبد الوهاب، أبو راس الناصر، ص:04.
(2) معجم أعلام الجزائر، المرجع السابق، ج1، ص: 31.
(3) عبد الحي الكتاني، فهرس الفهارس، المصدر السابق، ج2، ص: 430.

المغربي الأصل المصري الدار الأزهري، المتوفى سنة 1232هـ والمولود سنة 1154هـ وأجازه عدة مشايخ[1].

10-الشيخ علي الأمين الجزائري: هو الشيخ علي بن عبد القادر بن عبد الرحمن بن علي الجزائري الدار، توفي سنة 1236هـ بالجزائر مفتي المالكية بها ومسندها ومجدد رونق العلم بها، وطلب العلم في مصر[2].

11- الشيخ المرتضى الزبيدي: هو الشيخ مرتضى بن محمد بن عبد الرزاق الحسني الأموي الزبيدي النسب المكنى بأبي الفيض وبأبي الوقت، الملقب بمرتضى بن محمد بن أبي الغلام محمد بن بن القطب أبي عبد الله محمد بن الولي الصالح الخطيب أبي الضياء، ولد سنة 1145هـ بالحرم، حج مرتين وأخذ عن نحو ثلاثمائة شيخ[3].

12- الشيخ العربي الشرقاوي: هو الشيخ العربي بن ولي الله المعطي بن صالح بن معطي بن عبد الخالق بن عبد القادر بن الشيخ الشرفي البجعدي توفي سنة 1234هـ كان والده عارفا كبيرا في المغرب أخذ عدة إجازات من مشايخ كثيرين[4].

---

(1) المصدر نفسه، ج1، ص: 133.الحفناوي، تعريف الخلف برجال السلف، ص:365.
(2) عبد الحي الكتاني، فهرس الفهارس، المصر السابق، ج2، ص: 784.
(3) عبد الحي الكتاني، فهرس الفهارس، ج2، ص: 526.
(4) المصدر نفسه ، ج2، ص: 778.

13- الشيخ بن قيزان: هو العربي بن هاشمي العزوزي الزرهوني الفاسي دفين الصويرة عام 1260هـ عن نيف وستين العلامة قاضي فاس ومفتيها، شارح المرشد أخذ عن محمد العربي القسنطيني وابن عبد السلام[1].

14- الشيخ عبد الغني مفتي الشافعية: هو الشيخ العارف بركة الشام وعارفها وعالمها المتوفى بدمشق سنة 1143هـ عن نحو تسعين عاما، له فهارس وإجازات[2].

15- الشيخ محمد بن الفكون: هو الشيخ عبد الكريم بن محمد بن عبد الكريم الفكون، أديب نحوي محدث، جمع بين علمي الظاهر والباطن، كان عالم المغرب الأوسط في عصره، توفي بقسنطينة بالطاعون، له شرح على التعريف في علم التصريف للمكودي، فرغ منه سنة 1048هـ[3]. أخذ عنه أبو راس أصول النحو والصرف.

16- الشيخ بن علي المغيلي: هو الشيخ الصادق بن علي المغيلي المازوني عالم وقاض، من فقهاء المالكية، من أهل

---

(1) المصدر نفسه،ج2، ص: 781.
(2) المصدر نفسه، ج2، ص: 756.
(3) عادل نويهض، معجم أعلام الجزائر، ص: 97.

مازونة، تعلم بها وبمعسكر. أخذ عنه أبو راس الفقه ومبادئ التوحيد[1].

17- الشيخ محمد بيرم: هو الشيخ محمد بن حسين بن أحمد بن محمد بن حسين بن بيرم الحنفي التونسي، أقام بها مفتيا خمسا وأربعين سنة، من مؤلفاته "اختصار أنفع الوسائل في تحرير أنفع المسائل" للطوسي في الفقه الحنفي، و"رسالة السياسات الشرعية". توفي عام (1214هـ/1800م)[2]. أخذ عنه أبي راس علم الفقه والتوحيد ومبادئ اللغة.

18- الشيخ مصطفى بن ويس: هو الحسن بن محمد بن محمد بن مصطفى بن ويس المازوني، من كبار علماء مازونة في وقته، فقيه حنفي، من تآليفه" تحفة الملوك في حصر أصول الإرث المتروك، ومنهاج السلوك.[3] أخذ عنه أبو راس العلم الشرعي من فقه وحديث.

إلى جانب هؤلاء الشيوخ، فهناك شيوخ آخرون،[4] حيث بلغ تعداد الجميع ما يقارب "خمسين شيخا وعالما وحدد فضائلهم ودرجاتهم

(1) المصدر نفسه، ص:270.
(2) عبد الحي الكتاني، فهرس الفهارس، ج1، ص: 242.
(3) عادل نويهض، معجم أعلام الجزائر، ص:280.
(4) نذكر منهم: الشيخ محمد بن لبنة، الشيخ البشير بن محمد، الشيخ المنصور الضرير،الشيخ أحمد بن ناقلة، الشيخ السيد كاميل، الشيخ محمد بن عبد القادر القاضي، الشيخ محمد أبو طالب، الشيخ أحمد بن عبد الحليم، الشيخ أحمد بن عبد الله الوسي المغربي، الشيخ عبد الرحمن التادلي، الشيخ عصمان الشامي، الشيخ عبد الملك الشامي القلعي،الشيخ عبد الباقي المفتي الحنبلي، الشيخ محمد بن مولاي سحنون، الشيخ مصطفى بن هني، الشيخ محمد بن ابراهيم، الشيخ مصطفى بن يونس، الشيخ البدالي، الشيخ سيدي عثمان الحنبلي، الشيخ

وهؤلاء تتلمذ بعضهم في معسكر وفي مازونة، كما تتلمذ على آخرين في المغرب والجزائر العاصمة وقسنطينة وتونس، كما أخذ عن علماء مصر والحرمين"[1]. هذا تقريبا عن أهم الشيوخ الذين درس أو قرأ عنهم أبو راس، وهناك من حضر مجالسهم مرة أو مرتين وهناك من لازمهم إلى أن نضج عقله واكتمل تصوره للمعقولات وحرصه على المنقولات.

2- إجازاته

يعتبر أبو راس شيخ مؤرخي الجزائر العثمانية، اشتهر باطلاعه الواسع ومعرفته العميقة للعلوم اللغوية والأدبية والفقهية[2] فقد أهلته ثقافته الواسعة ومطالعته المتبحرة، واتصاله بالعلماء وحرصه على حفظ العلوم وكذا حافظته القوية من استقطاب الفنون والعلوم، فأصبح يعرف، ويلقب في أنحاء المعمورة بحافظ المغرب الأوسط ومشكاة[3] العلم ونوره في ذلك العصر، ولا تزال مخطوطاته شاهدة عيان على ذلك.

=عمارة العلاف الينبعي، الشيخ الزناتي، الشيخ سيدي حامد، الشيخ السيد الحسن المغربي، الشيخ عبد القادر ابن السنوسي ، الشيخ المسيري من الاسكندرية، الشيخ محمد ابن الحفاف، الشيخ محمد بن الشاهد.أنظر أبو راس،فتح الاله ومنته في التحدث بفضل ربي ونعمته.

(1) مولاي بلحميسي، المرجع السابق، ص: 01.

(2) ناصر الدين سعيدوني، دراسات وأبحاث، المرجع السابق، ص: 247.

(3) G.faure biguet, op.cit, p:3

وإذا كانت الإجازة عبارة عن "شهادة كفاءة" أو تأهيل يستحق بها المجاز لقب الشيخ، أو الأستاذ في العلوم المجاز بها، فإنها بتقادم العهد أصبحت لا تغني كل هذا نظرا لشاهل المجيزين في منحها[1]. ولم يعد تحقق المجازين في كفاءتهم ودرايتهم بالعلوم، ولا من أخلاقهم وسلوكهم[2]، ومن الذين أجازوا أبا راس في مختلف الفنون: كصحيح البخاري، والجامع الصغير، والأسانيد، والفتوى، ومختصر خليل وحاشية البناني، الشيخ مرتضى الزبيدي الذي كان له "أثر بالغ على علماء الجزائر بطريق الإجازة، فهو من الذين اشتهروا بالتبحر في العلوم والتأليف فيها، ونشر الإجازة بين المعاصرين"[3].

ونصّ الإجازة الممنوحة له في صحيح البخاري كالتالي: "يروي الشيخ أبو راس عن السيد المرتضى عن الشيخ الحفني وهو العلامة الفاضل العارف بالله الكامل الشيخ محمد بن سالم بن أحمد الحفني المصري إمام الأبهة وربس الطريقة الخلوتية، والحفني يروي عن الزيادي والبديري المعروف بابن الميت والسيد مصطفى البكري ومحمد السلماني المغربي، والشيخ العزيزي والعشماوي والشبراوي والشيخ احمد الجوهري وغيرهم وهو أي الحفني يروي البخاري

(1) أبو القاسم سعد الله، تاريخ الجزائر الثقافي، ص:53.
(2) المرجع نفسه، ص: 41.
(3) أبو القاسم سعد الله، تاريخ الجزائر الثقافي، ص: 53.

مسلسلا بأهل مصر بطرق تفوت العشر، من أجلّها روايتـه عـن شيخه الزيادي عن الباقلي عن السنهوري عن الغيطي عن زكريـاء الأنصاري عن أبي حجر عن العراقي عن أبي علي شاهد الجـيش عن عثمان بن رشيق عن هبة الله البصير عن محمـد بـن هـلال السعيدي عن أم الكرام كريمة بنت أحمد الكشهيهني عن الفريـري عن البخاري"[1].

أما الإجازة التي منحت له في الجامع الصغير فنصها: "ويـروي الشيخ أبو راس الجامع الصغير عن المرتضى عن الحفنـي عـن البديري عن محمد بن القاسم عن عمر موسى عن الشعراني عـن السيوطي"[2]. كما" يروي الشيخ أبو راس عن السيد المرتضى وهو عن الشيخ محمد بن محمد الشريف الحسني المعـروف بالبليـدي الأندلسي الأصل المولود بمصر قال المرتضى خضت في دروسـه الأعواما، ونلت من شهوره الأنعاما وأجازني بكل ما أجيزا. أكـرم به من منجد مجيزا، والبليـدي يـروي عـن الفقـري وسـليمان الشبراخيتي والبشيشي والشيخ منصور المنـوني والشـيخ محمد الزرقاني شارح الموطأ والمواهب وهو يروي عن والده عبد الباقي

(1) الشيخ عبد القادر بن المختار الخطابي الجزائري، الكوكب الثاقب، مخطوط بحوزة الشيخ الأمام أبو عبد الله، إمام بمسجد المدينة الجديدة، وهران، الورقة: 64.
(2) المصدر نفسه، الورقة:64.

الزرقاني شارح خليل وهو عن الأجهـوري واللقـاني بأسـانيدهما المعروفة"[1].

أما الإجازة التالية التي منحت له في إسناد الشيخ خليـل يقـول صاحب الكوكب الثاقب: "وهاك إسناد خليل فيرويه شـيخنا سـيدي أبي راس عن والده سيدي محمد بن هني عـن الشـيخ أبـي راس ويرويه شيخنا سيدي محمد بن محمد بن عبد الرحمان عن الخلوي عن الشيخ أبي راس بواسطته وهو عن الأمير الكبير والـدرديري وعن أبي القندوز المستغانمي عن الشيخ الـدرديري وهمـا عـن العروي وهو عن محمد الصغير عن والده عبد البـاقي الزرقـاني والشبراخيتي والخرشي عن الأجهوري واللقاني الخ السند المتقـدم وبهذا السند نسبه تسند كتب كثيرة تركناها للاختصار"[2].

ويروي الشيخ أبو راس كذلك عن السيد المرتضي[3] عن محدث العصر الشيخ محمد بن الطيب الفاسي اللقتـي شـارح القـاموس

(2) الشيخ عبد القادر بن المختار الخطابي، الكوكب الثاقب ص:65.
(2) الشيخ عبد القادر الخطابي، الكوكب الثاقب في أسانيد أبي طالب، ص:66.
(3) كما ويروي الشيخ أبو راس عن السيد المرتضى عن محمد عبد الله المنور التلمساني وهو يروي عن المسناوي وابن زكون وابن المبارك والحريشي والبناني الكبير وابن رحمان وميارة والشيخ مصطفى الرماصي والشيخ بن عبد الرحمان صاحب المنح "، ويضيف صاحب الكوكب الثاقب " ويروي الشيخ أبو راس عن الشيخ بن القندوز المستغانمي وهو يروي عن الشيخ أبي طالب المازوني وكان له اعتناء به عظيم واعتقاد فيه جسيم ويروي أيضا عن التاودي بن سودة والعلامة البناني الفاسيين وسيدي العربي بن السنوسي القيزاني المستغانمي عن الدردير وسيد مرتضى اليمني.
ويروي شيخنا أبي راس عن والده عن جده لأمه سيدي أبي راس و يروي شيخنا سيدي محمد بن عبد الرحمان عن الخلوي عمن أخذ عن الشيخ أبي راس مختصر خليل وحاشية البناني وهو عن الشيخ ابن القندوز عن العلامة البناني وهو عن أبي عبد الله سيدي محمد ابن عبد السلام بناني وهو عن سيدي عبد القادر الفاسي وعن سيدي أحمد بن الحاج وعن القاضي سيدي أحمد بن العربي فرحالة المتوفي سنة1133هـ/1706 م كلهم

وفصيم نظم ابن المرحل فصيح ثعلب ذو التآليف المفيد في الفتـوى العديدة قال: "حصرت تقريراته الشهية قطفت من أثمـاره الزكيـة أجازني بكل ما يرويه عن كل حبر عالم نبيه وهو يروي عن والده سيدي أحمد بن ناصر الدرعي[1] والشيخ محمد بن عبد الرحمان بن عبد القادر الفاسي صاحب المنح الباديـة فـي الأسـانيد العاليـة والمسناوي وميارة والعجمي"[2].

وكان محمد الأمير قد أجاز أيضا أبا راس[3]، ومـن الملاحـظ والغريب في نفس الوقت أن العلماء الجزائريين لم يجيزوا بعضـهم البعض إلا قليلا[4]. "ولطالما جلس علماء الجزائريين لـم يجيـزوا بعضهم بعضا ومع ذلك لا نكاد نجد أنهم قـد منحـوا الإجـازات لبعضهم"[5]. وهناك مجالس علماء كثيرين كانت عامرة، من بيـنهم مجالس أبي راس إلا أننا لا نجد إجازات صدرت منهم لتلاميـذهم، أو بعبارة أخرى لا تكاد تذكر.

=عن أبي محمد سيدي عبد القادر الفاسي والد الأول وزاد الأخيران بالخذ عن عبد الله سيدي محمد مبارك المتوفي سنة1072هـ/ 1620م.

(1) توجد لدى الدكتور فغرور دحو نسخة مصورة من رحلة بن الناصر الدرعي والتي لا تزال مخطوطة، وقد اطلع الباحث عليها، وهي من الحجم المتوسط في حدود أربعمائة صفحة بخط مقروء وواضح.

(2) عبد القادر بن المختار الخطابي، الكوكب الثاقب، ص: 66.

(3) أبو القاسم سعد الله، تاريخ الجزائر الثقافي، ص: 54.

(4) المرجع نفسه، ص: 44.

(5) أبو القاسم سعد الله، المرجع السابق، ص: 45.

نعرف أنّ أبا راس قد ورد على مدينة الجزائر، وأخذ العلم عن ابن عمار، وغيره فيها، ولكننا لا نعرف أن هناك إجازة من ابن عمار لأبي راس[1]، ويبدو أنّ منح الإجازات لعلماء البلد الواحد لبعضهم البعض لا تكاد تذكر إطلاقا، أي أن الإجازة لا تأتي إلا نتيجة الاغتراب والسفر الطويل، والتتلمذ على غير أهل البلد[2]، وقد كان لعهد الله تأثير كبير على من جاؤوا بعد أبي راس أو الذين تخرجوا على يديه.

5- المهام التي تقلدها

بعد الأسفار المتعددة والرحلات الشاقة التي قام بها أبو راس، وأخذه للعلم عن شيوخ أجلاء كان لهم القسط الأكبر في تكوين شخصيته وتشجيع الباي له. وتظافر هذه العوامل كلها زاد من اهتمامه بالتاريخ والكتابات التاريخية المختلفة، لاسيما المعاصرة له، إلى جانب اهتمامه الخاص ومحاولة منه في الرقي إلى درجة العلماء والأساتذة مثل أستاذه عبد القادر المشرفي[3]، الذي تأثر به كثيرا.

(1) المرجع نفسه، ص:46.
(2) أبو القاسم سعد الله، تاريخ الجزائر الثقافي، ص ص:52-54.
(3) هو الشيخ عبد القادر بن عبد الله المشرفي، الذي كان يدعى بشيخ الجماعة وإمام الراشدية، ولد ونشأ بالكرط، قرية قرب معسكر، وتثقف على علماء عصره، وله رسالة مشهورة يندد فيها بالقبائل المتعاونة مع الإسبان سماها، "بهجة الناظر في أخبار الداخلين تحت ولاية الإسبانين من الأعراب كبني عامر"، توفي بمسقط رأسه سنة 1122هـ يحي بوعزيز، أعلام الفكر والثقافة في الجزائر المحروسة، ص: 231.

وقد كانت بداية أبي راس في مجال التدريس بمعسكر[1]، حيث مارس مهنة التدريس في حدود سنة 1752م[2]، وكانت هذه المبادرة من طرف شيخه عبد القادر المشرفي الذي رشحه ليكون خليفة له في التدريس، وسبب خروجه من معسكر هو إحساسه –إن لم نقل تيقنه– من أن البادية تضعف العلم، وتزرع بين طالبي العلم الجهل والضلال.

لهذا السبب غادرها، فقد كان مجلسه يضم أحيانا أكثر من سبعمائة وثمانين طالبا[3]، وهو ما دفع بالباي محمد بن عثمان الكبير أن يخصص له كرسيا يستعين به على إلقاء دروسه ومحاضراته، نظرا لنحافة جسمه التي لم تكن تسمح له بالظهور من وسط الطلبة بسبب ازدحامهم عليه، ومن ثم سمي الشيخ بـ: صاحب الكرسي الدوار[4]، وأصبح ينوب عنه الشيخ عبد القادر المشرفي في إلقاء الدروس كما تقدم ذكره. وبذلك كفوه حاجاته من قمح وشعير ولحم وزيت ودراهم[5].

(1) أبو القاسم سعد الله، أبحاث وآراء في تاريخ الجزائر، ش.و.ن.ت، الجزائر، ط2 –1989، ج1، ص: 86

(2) تم تحديد هذه السنة عن طريق إجراء عملية بين سنه في سن العاشرة (1747م) وبين سنه عند بدايته للتدريس أي بإضافة خمس سنوات لهذه السنة، لنحصل على سنة (1752م) وهو ما اتفق عليه الأستاذ ولد عبوشة.

(3) يذكر الأستاذ عبد الوهاب أن اجتماع سبعمائة وثمانون طالبا على أبي راس، إنما هو في الحقيقة يعادل مؤسسة كاملة من ست وعشرين حجرة درس بأساتذتها وإدارتها وميزانيتها التي تفوق مليون سنتيم من مؤسساتنا الحالية. محمد عبد الوهاب، المرجع السابق، ص: 3.

(4) هذه العبارة موجودة حسب قول الأستاذ جيلالي جلول في مخطوط زهرة الشماريخ لأبي راس الناصر، لقاء مع الباحث جيلالي جلول يوم 2002/01/11، بمعسكر.

(5) يحي بوعزيز، الإنتاج الفكري والأدبي للشيخ أبي راس الناصر، المرجع السابق، ص: 245.

كما أسندت لأبي راس مهمة القضاء "وهي وظيفة دينية حسب النظم الإسلامية.حيث أنها لها ارتباطات قوية بالدين وعلومه، وكل من يتولاها في الدول الإسلامية يكون-حتما- من الفقهاء وعلماء الدين"[1]. وهي ثقيلة على كل عالم زاهد ورع تقي حافظ عدل.ولقد حذر النبي ﷺ من تولية هذا المنصب فقال: "من ولي القضاء فقد ذبح بغير سكين"[2]. وهذا تنبيه منه عليه الصلاة والسلام،على ما يدخل فيه من الأمر العظيم.لأن الغالب على عدم السلامة منه،لأنه بلية منه لمن امتحن به ومحنة.[3] فتولاها وهو رافض لها مدة سنتين لأنها كانت تعيقه وتشغله عن حياته العلمية، لأنه كان يختم الشيخ خليل ثمان مرات إلى جانب تصديه للإفتاء أيضا[4].

لكنه سرعان ما عزل من منصبه بسبب ثورة درقاوة ثم إن أبا راس كان يجلس للدرس فيبدأ من باب الاعتكاف[5] ولا يقوم حتى يقف على باب الزكاة تتخللها نكت وطرائف حتى صارت حضرته

---

(1) بوزياني الدراجي، نظم الحكم في دولة بني عبد الواد الزيانية، ديوان المطبوعات الجامعية، الجزائر، ط1993، ص:238.
(2) رواه أبو داود والترميذي وقال حسن غريب من هذا الوجه.السيد سابق،فقه السنة، دار الكتاب العربي، بيروت،ط1987،8،ص:307.
(3) أبو عبد الله محمد بن عبد الله الإفريني المكناسي، كتاب القضاء، مخطوط بحوزتنا، ورقة ظهر، رقم:242.
(4) الاعتكاف لغة: من الافتعال من عكف على الشيء عكوفا وعكفا، أي قعد وضرب، إذا لازم وواضب عليه، وعكفت الشيء حبسته، وعكفت عن حاجته؛ منعته ...، وشرعا: اللبث في المسجد على صفة مخصوصة بنية. الموسوعة الفقهية، طباعة ذات السلاسل، الكويت، ط2 -1986، ص: 206.
(5) أبو راس الناصر، فتح الإله، ص: 22.

في العلم: "تذكر في الآفاق وتنسيك دروس مصر والشام وتونس والعراق"[1].

وأبو راس لم يقل هذا اغتباطا ولا مبالغة منه بل هو جدير بذلك، وقد أخذ أبو راس علومه على يد مجموعة من الشيوخ. وقد تحصل الباحث على بعض الوثائق من خزانة الشيخ البشير محمودي، التي تثبت أن أبا راس تولى مهنة القضاء منها وثيقتين مخطوطتين ذو محتوى واحد، اللهم بعض الزيادات تارة وبعض الحذوفات؛ تارة أخرى لكن بخط نسّاخ مختلفين، من بين هذه الوثائق، الوثيقة التالية:

"يقول الراجي عفو ربه، المعترف بتقصيره وذنبه، وفضيح عيبه، محمد أبو راس الناصر وفقه الله بمنه، آمين.[2]

سألني بعض أولي الفروع	**عن أشياء كثيرة الوقوع**
من الذي[3] نصها غالبا قليل	**أجبته وحسبي الله الوكيل**
موضحة الرأس خمسون عسجدا	**وليس فيما قبلها يا ماجدا**
من كل الست[4]عوض مشهور	**لمالك وصحبه البرور**

(1) يحي بوعزيز، المرجع السابق ص: 228.

(2) توجد في النسخة الثانية بهذا اللفظ: " قال الشيخ العارف بالله المؤسس الناظم السيد أبو راس أدركنا الله، ما ما درك بفضله.

(3) في النسخة رقم2 : "عندي ما نصها".

(4) في النسخة رقم2: من كل السة.

إنّ هذه الوثيقة التي هي عبارة عن نظم أراد بها الشيخ أبو راس أن يعطي لمحة عن أهمية القضاء والفتوى وهذا بعد مساءلته عن أشياء كثيرة ما كانت تقع في عصره فهي تعتبر مصدرا مهما، في التعرّف على شخصية أبي راس من حيث توليه مهمّة القضاء والفتوى. ويتضح من خلال تحليل محتوى هذه الأبيات، أن الشيخ الناصري ملتزم في فتواه بأصول المذهب المالكي. فهو يرجع إلى ما كتبه الباجي، ابن فرحون، ابن سحنون، ابن عرفة، وغيرهم من أعمدة الفقه المالكي بالمغرب الإسلامي.

إنّ لمكانة الشيخ أبي راس الناصر عند علماء عصره ، مكانة عاليه لا يضاهيها أحد، خصوصا وأن الشيخ له هيبة بين أوساط مجتمعه، فهو يحظى بأهمية كبيرة عند من يقدر مكانة العلم والعلماء، ومهنة القضاء التي امتهنها أبو راس والتي لم يكن يرغب القيام بها إلا بطلب السلطة التركية منه. والقضاء كما هو معروف مهنة صعبة جليلة، لا يطلبها إلا من كان له علم بكتاب الله وسنة رسوله عليه الصلاة والسلام. فأبو راس كان يعلم أن القضاء مهنة تكليف لا تشريف، فحرص على تأدية واجبه على أتم وجه، إلى أن جاءت فتنة درقاوة التي بسببها عزل الشيخ من منصبه.

تلامذته وآثاره العلمية

بحكم ثقافته الموهوبة وهو الذي كان يلقب كما أسلفنا بالحافظ، لا جرم أنه ترك للمجتمع الجزائري المثقف ثراثا غنيا عن التعريف والمتمثل في جملة من التلاميذ درسوا وتعلموا على يد شيخنا سيدي أبا راس ليتحولوا إلى علماء عظام ممتطين بساط شيخهم منوهين بعلمه وفضله، وهذا بطبيعة الحال فضل المتعلم على المعلم، ومن جملة هؤلاء التلاميذ نذكر على سبيل المثال لا الحصر طائفة منهم:

1- **الشيخ أبو حامد العربي المشرفي:** هو العربي بن علي بن عبد القادر المشرفي الحسني الغريسي حفيد عبد القادر المشرفي شيخ أبي راس الناصر المعسكري[1] وصاحب الكتيب الموسوم بـ "بهجة الناظر"[2]. ولد العربي المشرفي بغريس بنواحي معسكر.

2- **الشيخ العربي بن السنوسي:** هو محمد العربي بن السنوسي، كان يدرس القرآن الكريم برواية ورش، وسائر الفنون، أخذ عنه محمد بن علي السنوسي وولده سيدي محمد.

3- **الشيخ محمد السنوسي (1202هـ/1276م):** هو أبو عبد الله محمد بن علي السنوسي الخطابي الحسيني الإدريسي مؤسس

(1) أبو القاسم سعد الله، أبحاث وآراء، ج2، ص: 175.

(2) عبد القادر المشرفي، بهجة الناظر، تحقيق محمد بن عبد الكريم الجزائري، بيروت لبنان، بدون تاريخ حوالي (1971م).

الطريقة السنوسية، ولد في مستغانم، ونشأ في بيت علم ودين وفضل فدرس علوما متنوعة[1] من بين تآليفه: الدرر السنية في أخبار السلالة السنوسية (مطبوع)، والمسائل العشر المسماة: بغية المقاصد وخلاصة المراصد (مطبوع)، والشمس الشارقة في أسماء مشايخ المغاربة والمشارقة[2]. ولذا نجد محمد بن عيسى السنوسي يقول: "... ومنهم شيخنا وشيخ مشيختنا الهمام والحافظ، الإمام سيدي محمد أبو راس (الناصر المعسكري) المعسكري البلد، الناصري المحتد رحمه الله، كنت أتردد إليه"[3].

4- الشيخ محمد المصطفى بن عبد الله (ت 1215هـ/ 1800م):

هو الشيخ محمد المصطفى بن عبد الله بن زرفة الدحاوي من شرفاء غريس، وكان كاتبا للباي محمد بن عثمان، ومساعدا لرئيس رباط إيفري للطلبة قرب وهران وشارك بنفسه في الهجوم الشامل وتحرير مدينة وهران التحرير الثاني والنهائي عام 1792م كما عين ابن زرفة قاضيا بها (وهران) إلى غاية (1800-1801م)[4].

(1) منها علوم الشريعة واللغة ومذاهب الإسلامية، والطرق الصوفية إلى جانب الفلسفة والمنطق وعلوم الفلك، كما تنقل في سائر الأقطار العربية واطلع على الأحوال العامة والخاصة للشعوب الإسلامية.
(2) عبد القادر بن عيسى المستغانمي، مستغانم وأحوازها عبر العصور، المطبعة العلاوية، مستغانم، ط1 – 1996، ص: 97.
(3) المرجع نفسه، ص: 47.
(4) يحي بوعزيز، أعلام الفكر والثقافة في الجزائر المحروسة ص: 233.

5- الشيخ عثمان الموسوي الهزاري(ت 1238هـ/): هو أبو عمرو عثمان بن محمود الهزاري نسبا، القادري طريقة، البغدادي منشأ وموطنا، قدم من بغداد واستقر بمدينة تازة المغربية فعرف ب:"التازي"، أجازه أبو راس بثبته "السيف المنتضى فيما رويته بأسانيد الشيخ المرتضى"والمرتضى الزبيدي أيضا من شيوخ أبي عمرو، ولكن أغفل عن ذكره في كتابه :"المعجم المختص"، وممن أخذوا عن أبي عمرو العلامة الصوفي أبو عبد الله محمد الهاشمي بن الحاج علي بن أحمد الصادقي الرتبي الفاسي، وقد أجازه بسنده، وأسانيده مذكورة في الثبت الذي جمعه تلميذه وسماه: "الفتح الوهبي فيمن أجاز لأخينا الحاج الهاشمي الرتبي" وفي هذا الثبت مجموعة من أسانيد تتصل بأبي راس المعسكري بواسطة تلميذه عثمان بن محمود الموسوي المتوفي سنة 1238هـ.[1]

6- الشيخ عبد القادر بن السنوسي: هو العلامة السنوسي بن عبد القادر بن السنوسي[2] بن عبد الله بن دحو بن زرفة، ومما مدح به شيخه أبي راس:

---

(1) عبد الحي الكتاني، فهرس الفهارس، ج1، ص ص: 151، 272، 511، 540، وج2، ص ص:622، 920، 1062.

(2) المشرفي أبو محمد العربي بن عبد القادر الحسني، ياقوتة النسب الوهاجة و في ضمنها التعريف بسيدي محمد بن علي مولى مجاجة، مخطوط بخزانة الشيخ محمودي البشير، ص:20.

ذاك"أبـو راس" ناصـر الـدين النـاصـري طـلاع الثنايـا
إن صعد الكرسي تعرف سموه فاطلبـه قبـل طلـب المنايـا
ولاتسـراليه ذا تـسـوان كـم متـوان حـرم العنايـا
بل لاتسر اليـه الا جـدا تفـد وتكسـي حلـل الهنايـا
فهو المجدد من غير مـين أصلح مـا كـان مـن الجنايا
عوضنا الله به السيوطـي فاعتـدنا منـه شـيما سـنايا

7- الشيخ بن القندوز(ت1222هـ): هو الإمام أبو عبد الله محمد بن القندوز، شيخ الجماعة بالحضرة المستغانمية وأحوازهـا، أخـذ بمصر عن العارف بالله الـدردير، وكـان يحفـظ شـرح شيخه على المختصر بلفظه وحروفه، كان ملازما لصحيح البخاري يختمه كل سنة وملازما لتفسير القرآن الكريم بين العشائر يختمه كل سنة غالبا ملتزما فيه الجواهر الحسان للثعالبي والجلالين وابـن جـزي ومراجعة الخازن، وملازما لقراءة علم التوحيد كصغرى السنوسي، وممن أخذ عنه محمد بن علي السنوسي، توفي عن سن عالية سـنة 1222هـ[1].

8- الشيخ ابن تكوك (1218-1307هـ/1803-1890م): هـو الشيخ ابن الشارف بن الجيلالي بن تكوك، فقيه من أنصار الطريقة

(1) بن علي السنوسي، البذور السافرة في عوالي الأسانيد الفاخرة، مخطوط المكتبة الوطنية رقم: 3142، ص:22 وما بعدها.

السنوسية، ولد ببوقيراط بالقرب من مدينة مستغانم، فتعلم بها وهاجر إلى المغرب الأقصى، ثم عاد وأسس زاوية سنوسية سنة 1276هـ-1861م وتوفي بها[1]، وهي قائمة من إلى حد الآن، ومزارا للصوفية وغيرهم.

9-الشيخ السنوسي: هو الشيخ السنوسي بن السنوسي بن عبد الله بن دحو بن زرفة شقيق الشيخ عبد القادر بن السنوسي، وهو شيخ وتلميذ لأبي راس، قال عنه أبو راس: "قد أنجب في العلوم بـ:"المغرب الأوسط" مثل ابني الإمام والصفاقصي وأخيه إبراهيم الهمام، كنت قرأت عليه المنطق والبيان، وقرا - هو وحده - علي الفقه، ولجلالته وعلو منصبه أفردته عن الطلبة في القراءة لكثرتهم جدا حتى يضيق عنهم الجامع ورحابه.[2]

10- الشيخ عبد القادر الهزيل: هو محمد بن محمد الهزيل، فهو والد والدي أبو زيد عبد الرحمن التوجيني، يعد من بين التلاميذ الذين درسوا على الشيخ أبي راس الناصر. أخذ عن الشيخ أبو راس مختلف الفنون.

11- الشيخ محمد بن الخضير: (ت: 1292هـ): هو المهاجر في سبيل الله سيدي محمد بن الخضير بن علي بن أبي القاسم بن

---

(1) عبد القادر بن عيسى المستغانمي، مستغانم وأحوازها عبر العصور، المطبعة العلاوية، مستغانم،ط1-1996، ص:97.

(2) أبو راس، فتح الإله ومنته في التحدث بفضل ربي ونعمته، ص:73.

محمد بن إبراهيم بن محمد بن ميمون، كان من كبار علماء القرويين مشهودا له بالعلم والعلاج، توفي سيدي محمد بن الخضير بمدينة فاس سنة 1292هـ، ودفن بجانب قبة سيدي علي ابن حرزهم، خارج باب الفتح.

12- الشيخ أحمد الدايج: هو العلامة السد الهايج، فريد وقته السيد أحمد الدايج، الملقب بالخرشي الكبير عند أهل الراشدية. أخذ عن الشيخ أبو راس المعقول والمنقول، فهو داهية من وراء العقول(1).

13- بن عبد الله سقاط المشرفي: حفيد الطاهر المشرفي، كان إماما في الفقه والحديث، تولى وظيفة القضاء للأتراك، ووقع على وثيقة مبايعة الأمير عبد القادر أميرا للجهاد، وولاه الأمير خطة القضاء، وعينه عضوا كذلك في مجلس الشورى العالي الأميري.(2)

14- الشيخ ابن شنين: يعد من بين التلاميذ والشيوخ الأجلاء الذين أخذوا على الشيخ أبي راس الناصر، العلوم والمعارف المختلفة،حيث كان قدوة حسنة يقتدى به في المعقول والمنقول.

---

(1) لقاء مع الباحث في التراث الثقافي جيلالي جلول يوم:2002/02/11.
(2) يحي بوعزيز، أعلام الفكر والثقافة في الجزائر المحروسة، ص:232. المشرفي أبو محمد العربي بن عبد القادر الحسني، ياقوتة النسب، ص:20.

15- الشيخ محمد بن يوسف الزياني: هو محمد بن يوسف الزياني من أسرة علمية توارثت القضاء بمنطقة البرج بمعسكر، وهو عم الشيخ أحمد بن يوسف الزياني الذي تولى القضاء بالمنطقة عام 1886م، وصاحب كتاب دليل الحيران وأنيس السهران في أخبار مدينة وهران. وهو ناسخ أحد كتب أبي راس في التاريخ.كان حيا في حدود 1914م، وتوفي حسب اعتقادنا وحسب وثيقة عثر عليها عام 1918م.

مدوناته العلمية

لقد خلف أبو راس كتبا كثيرة في مجال التاريخ وغيره، بعضها موجود وبعضها مفقود، وقد ذكر أن مجموع تآليفه بلغت نحو الخمسين كتابا في التفسير والتاريخ والأدب والتراجم والرحلات. وهناك من قال أن ما ألفه بلغ نحو 63 كتابا، ونسب إليه 137 مصنفا في مختلف الأغراض. بين كبير وصغير وبين تأليف وشرح وتعليق وتلخيص منها ما نشر ومنها ما زال محفوظا، ومنها ما يعتبر في حكم المفقود.

ففي علم التفسير وعلوم القرآن مثلا:كتاب مجمع البحرين في ثلاثة أسفار، وتقي على نظم الخرّاز في الرسم، والدرر اللوامع، وفي الحديث: كتاب مفاتيح الجنة وأسناها في أحاديث اختلف العلماء في معناها، والسيف المنتضى فيما رويت بأسانيد

الشيخ مرتضى، والآيات البينات في شرح دلائل الخيرات، وفي الفقه: حاشية عقد الحواشي على جيد شرحي الزرقاني والخرشي في ستة أسفار، المدارك في ترتيب فقه الإمام مالك، والأحكام الجوازل في نبذ من النوازل.

وفي علم الأصول: تشنيف الأسماع في مسائل الإجماع وحاشية على شرح المحلى لجمع الجوامع، وقاصي الأوهاد في مقدمة الاجتهاد، وفي علم الكلام والتوحيد: كفاية المعتقد ونكاية المنتقد، وهو شرح العقائد الكبرى للإمام محمد بن يوسف السنوسي، وأنوار البرجيس بشرح عقيدة الجمان النفيس لأبي زيد عبد الرحمن التجيني.

وفي التصوف: الزهر الأكم في شرح الحكم أو فتح الإله في التوصل إلى شرح حكم ابن عطاء الله، كتاب الحاوي لنبذ التوحيد والتصوف والأولياء والفتاوى، وله في النحو: الدرة اليتيمة، الحاشية الكبرى على شرح المكودي، والنكت الوافية بشرح المكودي على الألفية، وعمدة الزاب في إعراب" كل شيء وجئت بلا زاد"[1]، نفي الخصاصة في إحصاء تراجم الخلاصة، وله في

---

(1) سبب وضعه لهذا الكتاب أنه وقع بينه وبين كاتب باي وهران الشريف محمد حسن المعروف بالكاتب المستغانمي، نقاش بمحضر الباي حول نصب همزة شيء من قولك لاشيء، ووضع كتابا في نفس الموضوع اسماه: بغية المرتاد وبعث بهما إلى الكاتب المذكور.

اللغة: كتاب ضياء القابوس على كتاب القاموس، وله ضابط اختصره من الأزهري على قواعد القاموس والجوهري.

وله في الأدب: شرحان على مقامات الحريري اطلعنا عليهما بالمكتبة الوطنية الجزائرية، البشائر والإسعاد في شرح بانت سعاد، ونيل الأرب في شرح لامية العرب، وله في علم البيان: كتاب الأماني على مختصر سعد الدين التفتزاني، وفي المنطق: كتاب القول المسلم في شرح السلم، وفي العروض: شرح مشكلة الأنوار التي يكاد زيتها يضيء و لوم لم تمسسه نار.

أما في ميدان التاريخ فهي كثيرة ومتنوعة، منها:زهر الشماريخ في علم التاريخ، كتاب الوسائل إلى معرفة القبائل، كتاب المنى والسول من أول الخليقة إلى بعثة الرسول، شرح عقد الجمان النفيس في ذكر الأعيان من أولياء غريس، در السحابة فيمن دخل المغرب من الصحابة، درء الشقاوة في حروب الترك مع درقاوة، ذيل القرطاس في ملوك بني وطاس، مروج الذهب في نبذة من النسب ومن إلى الشرف انتمى وذهب[1].

رغم كل هذا تبقى مؤلفات أبي راس كثيرة في شتى ميادين المعرفة المختلفة، إلا أن ما اشتهر منها في مجال التاريخ: عجائب

---

(1) يقال أنه انتقد فيه كثيرا من أنساب القبائل البربرية المنتمية إلى آل البيت، وهذا ما جر عليه المحن والفتن بإحراق الكثير من كتبه وتآليفه وضياع الكثير منها في حياته وحتى بعد مماته.

الأسفار ولطائف الأخبار، والحلل السندسية في فتح ثغر وهران والجزيرة الأندلسية، والخبر المعرب الحال بالأندلس وثغور المغرب.

وفاته

لقد كانت وفاة العلامة أبي راس الناصر، يوم الخامس عشر من شعبان من سنة ثمان وثلاثين ومائتين وألف هجرية(1238هـ/1823م) عن عمر يناهز التسعين سنة، ولقد صلى عليه خلق كثير من الناس يؤمهم تلميذه أحمد الدايج الملقب بالخرشي الكبير عند الراشدية، وقد أحصاهم بعضهم بـ: ألف وخمسمائة (1500) نسمة، ودفن قرب داره بعقبة بابا علي بمعسكر أين يوجد ضريحه حيث أقيمت عليه بناية قائمة إلى اليوم هي مزارا للناس.

يقول الآغا المزاري: "توفي يوم الأربعاء 15 خمسة عشر شعبان 1238هـ/1823م...وصلى عليه العلامة الأسد الهايج فريد وقته المعبر عنه بالراشدية بالخرشي الكبير السيد أحمد الدايج ودفن بعقبة بابا علي من معسكر، فنسبت له تلك التي اشتهر بها، وعلى ضريحه قبة، نفعها الله به وأورثنا منه محبة وقربة"[1].

(1) طلوع سعد السعود، المصدر السابق، ص:349.

وفي تلك السنة رفع المطر في العباد بعد ما فرغوا من الحراثة إلى أن بقي للصيف شهر واحد في القول الذي ليس من أقوال الرثاثة، فأرسل الله مطره النافع للعباد وأزال بهم من التخمين والكساد، ونبت الحبّ وتمت الصيانة وحصدوا قسمين تلك السنة بصابة الشهر"[1].

وفي هذا الشأن يقول صاحب دليل الحيران وأنيس السهران: "وفي تلك السنة نفسها رُفع المطر عن العباد في ابانه، فتركت الناس الحرث في وقته وأوانه، ولما بقي للصيف نحو الشهر الواحد، أمطر الله العباد بالمطر النافع المتزايد فحرثت الناس فيه وحصدوا، وبلغت مناهم فشكروا مولاهم وحمدوا، فسميت السنة بصابة شهر، وتعاطى اسمها في البدو والحضر"[2].

كلتا الروايتين تتشابه في مضمونها لكنها تختلف إلى حد ما في لفظها، وأراد الباحث أن يذكر الروايتين معا دون أن يكتفي بواحدة منها، ليبين مدى اهتمام الرعية بعلمائها وحزنها الشديد على فقدان مثل هؤلاء العلماء الذين كانت البركة تحصل بسببهم، حتى الأرض تحزن لذهاب مثل هؤلاء الجهابذة الذين يعرفون كيف يكسبون الناس على اختلاف مراتبهم سواء كان

---

(1) طلوع سعد السعود، ص:349.

(2) مسلم بن عبد القدر، أنيس الغريب والمسافر، تحقيق رابح بونار، ديوان المطبوعات الجامعية، الجزائر، ط1987، ص: 25.

سلطانا أم قاضيا أم من عامة الناس بسبب سياستهم اللينة وحكمتهم القوية، وهو ما كان فعلا عند أبي راس الذي يعد قدوتنا وسبيلنا في ذلك.

أما عن سبب وفاة أبي راس فيرجعه الكثير من المؤرخين إلى مرض الطاعون الذي كان منتشرا في سنة 1823م/1215هـ. وهو القول الراجح الذي يذهب إليه الباحث، استنادا إلى ما ذكره الشيخ مسلم بن عبد القادر: "ومات به خلق كثير من العلماء من بينه الشيخ العلامة الكبير أبو راس الناصر"(1).

إنّ وفاة أبي راس تعدّ خسارة كبرى للعالم الإسلامي العربي، لاسيما الإقليم الغربي للجزائر. فقد ترك أبو راس وراءه، كما هائلا يغار عليه من المخطوطات النفيسة والذخائر النادرة التي لم تعرف النور إلى اليوم والتي بلغ عددها حوالي 137 مخطوطا في مختلف العلوم والفنون. حيث لم يركز جهده الفكري على تخصص معين بل تناول كل التخصصات تقريبا.

ولكن رغم وفاة أبي راس الناصر إلا أن ذريته لا تزال موجودة، ونسله لم ينقطع سواء من جهة أبيه أو أمه،فمن جهة أبيه ذرية حفيده أبو راس المازوني بنواحي مستغانم، وغليزان، أما من جهة أمه فذريته موجودة بغريس بنواحي معسكر.

---

(1) مسلم بن عبد القدر، أنيس الغريب والمسافر، ص: 25.

التعريف بالمخطوط والعمل في التحقيق

أولا: موضوع الكتاب

يعد كتاب "**لقطة العجلان في شرف عبد القادر بن زيان وأنه من ملوك بني زيان**" من أهم المصادر الأساسية في تاريخ شرف ونسب بني زيان، خصوصا وأنه يعكس شخصية المؤرخ والنسابة؛ الجامع بين التاريخ والتراجم من جهة وبين الأدب وفق رؤية تراتبية من جهة ثانية .

والكتاب في أصله تقييد وضعه أبي راس النّاصر المعسكري عن بعض أشراف بني زيان للشيخ عبد القادر بن زيان[1]. فنراه في إحدى صفحات المخطوط يقول: "إني أبيّن لك في هذه النبذة بعض أشراف بني زيان وخصوصا...سيدي زيان". وذكر بعض الإشارات التاريخية الخاطفة والمهمّة عن ملوك بني عبد الوادي وملوك بني زيان.

ثمّ إنّ إقدامنا على تحقيق هذا المخطوط النادر والفريد من نوعه حول شرف ونسب بني زيان ملوك تلمسان؛ من شأنه أن يكون إضافة لتاريخ تلمسان، ومصدرا مهما يعتد به البحوث الأكاديمية

---

(1) الغالب أن هذه الشخصية كانت معاصرة للشيخ أبي راس الناصر؛ بدليل إجابة هذا الأخير لما طلب منه حول وضع تقييد يبين فيه شرف ونسب ملوك بني زيان ورفعهم إلى عمود النسب الشريف.

والعلمية حول التاريخ الثقافي والسياسي لتلمسان خلال العهد العثماني. فهو بذلك يحوي معلومات وإشارات تاريخية تساهم في توثيق وتأصيل المرحلة المشار إليها آنفا.

ثانيا: عنوان الكتاب

وردت الإشارة إلى هذا الكتاب عند أبي راس نفسه في المخطوط الذي نحاول دراسته وتحقيقه؛ بقوله: "إني أبيّن لك في هذه النبذة بعض أشراف بني زيان". كما سمّاه أبو راس الناصر في مخطوطة "شمس معارف التكاليف في أسماء ما أنعم الله به علينا من التآليف"؛ بعنوان:" لقطة العجلان في شرف الشيخ عبد القادر بن زيان وأنه من بني زيان ملوك تلمسان"(1). كما ذكره في كتابه" فتح الإله ومنته في التحدث بفضل ربي ونعمته" بنفس الاسم.

ثالثا: دوافع تاليف الكتاب

يوضّح المؤلف في مقدمة الكتاب أن الباعث على تأليفه كان رغبته في الكتابة في مثل هذا النوع من العلم بقوله:" الحمد لله الذي قيّض لحفظ النسب الشريف أقواما، بعد تطاول الدهور ومرورها حقبا وسنينا وأعواما، بينوا ما اندرس وأوضحوا ما التبس،...والصلاة والسلام على من لم ينقطع له سبب ولا نسب، إذا

---

(1) يحي بوعزيز، أعلام الفكر والثقافة في الجزائر المحروسة، دار الغرب الإسلامي، بيروت، ط1، 1995، ج2، ص: 241.

انقطع ذلك من غيره يوم يكون الناس من أجداثها قياما ﷺ وعلى آله وأصحابه وأتباعهم؛ الذين صانوا الدين سيوفا وأقلاما".

ويواصل أبا راس ذكر الباعث على غرضه من تأليفه لهذا الكتاب بقوله:" أما بعد فاعلم جعلني الله وإياك من أهل التحقيق والإتقان، والتدقيق والإيقان، إني أبيّن لك في هذه النبذة بعض أشراف بني زيان، وخصوصا كامل النزاهة...الولي الشهير الصالح الكبير سيدي زيان، المنتمي إليه أفخر أهل العصر عبادة وتقى...".

رابعا: وصف الكتاب

تقع هذه النسخة في خمس ورقات من الحجم الكبير، بمقياس21×31، حيث تضم كل صفحة 20 سطرا وأحيانا أقل من ذلك، بمعدل عشر كلمات أو أكثر في السطر الواحد.

والمخطوط مكتمل البداية والنّهاية، حيث نراه يستهل كتابه بالبسملة والصلاة على النبي ﷺ فالحمدلة، ليقدّم لنا شرحا موجزا ينوه بأهمّية النسب وحفظه، والتنويه بجهود العلماء النسابة الذين كان لهم الباع الكبير في حفظ النسب الشريف؛ مشيرا في سياق الكلام إلى تسمية كتابه، ليدخل في الشرح مباشرة.

خامسا: محتوى الكتاب

لقد عُرف العرب في جاهليتهم التفاخر بالأنساب والكنى والألقاب، وزادت اهتماماتهم أكثر مع مجيء الإسلام بسيد الخلق أجمعين

محمد بن عبد الله عليه أفضل الصلاة وأزكى التسليم. فراحوا يؤلفون ويدونون المئات بل الآلاف من المجلدات حول نسبه الشريف ﷺ، وذريته من بعده ﷺ.

كما حوى الكتاب نسب بني عبد الوادي وشيء من تاريخهم وملوكهم، كما تعرض إلى ذكر نسب بني زيان والإشارة إلى بعض تواريخهم والتنويه بملوكهم وأمرائهم مع ذكر السنة والقرن. وذكر سلسلة نسب بني زيان ملوك تلمسان ورفعهم إلى عمود النسب الشريف.

سادسا: قيمة الكتاب وأهميته

يعتبر كتاب "لقطة العجلان في شرف سيدي عبد القادر بن زيان وأنه من بني زيان ملوك تلمسان" من الكتب الهامة المتعلقة بتاريخية نسب وشرف بني زيان ملوك تلمسان؛ نظرا لاعتماد مؤلفه على بعض من أمهات المصادر المختلفة التي تخدم موضوعه، وبالتالي حفظ لنا مادة لا يستهان بها في هذا النوع من المواضيع، التي قلما تتعرض لموضوع حفظ عمود نسب ملوك بني زيان ملوك تلمسان.

وتزداد أهمية هذا الكتاب أكثر إذا علمنا بأنّ المؤلف أحد النسابة الكبار؛ والمهتمين بهذا الفن قديما وحديثا، كيف لا وهو الذي ألف

في نسب وأرهاط الجان، وهو صاحب تأليف مروج الذهب في نبذة من النسب ومن إلى الشرف انتمى وذهب".

ومما يمكن الإشارة إليه أن أبا راس له تأليف آخر حول ملوك بني زيان تحت اسم" فتح الجواد في الفرق بين آل زيان آل عبد الواد وذكر ملكهم الأطواد".

والخلاصة التي يمكن التوصل إليها بعد دراسة وتحقيق مخطوط" لقطة العجلان في شرف سيد عبد القادر بن زيان" هي أنه يعتبر مصدرا مهما لا يمكن للباحثين والمهتمين بتاريخية نسب بني زيان ملوك تلمسان؛ إذ أنه يحفل بمادة تاريخية كبيرة ذات أهمية بالغة في تاريخ العهد العثماني بالجزائر، اقتبسها المؤلف من أهم المدونات التاريخية كصاحب الدر والعقيان في شرف بني زيان، وصاحب تاريخ العبر.

سابعا: المخطوط وطريقة التحقيق

ارتأيت أن تكون اهتماماتي منصبة حول تراث أبي راس؛ لاسيما تلك المفقودة منه للتعريف بها، وتمكينها من أيدي الباحثين للاستعانة بها في بحوثهم ومجالات اهتماماتهم المتعددة. ثم لأن التحقيق على أصل وحيد؛ تجربة مضنية متعبة للفكر حافلة بالمصاعب. ولكني نظرا لاعترافي بمدى أهمية تراث أبي راس الناصر المعسكري عموما؛ وكتاب لقطة العجلان خصوصا لما يحويه

من مادة تاريخية هامة؛ فرحت أفتش عن أصول أخرى، لعلي أجد ضالتي لكن دون جدوى، ورغم أن هناك من الباحثين والمؤرخين من اعتبر المخطوط في حكم المفقود، وبفضل الله تعالى تمكنا من الحصول على نسخة وحيدة لمخطوط لقطة العجلان.

فاقتصرنا على نسخة مصورة للشيخ أبي عبد الله شراك جزاه الله عنا كل خير، ومن ثم لم يبق لنا إلا التعويل على هذه النسخة؛ لأنّ إخراج الكتاب إلى النور أجدى من تركه قابعا في خزانة أو الانتظار ردحا من الزمن.

ويعود اتصالي بالمخطوط نفسه أو بالشخصية كما ذكرته ضمن تحقيقنا لكتاب الشقائق النعمانية لمترجمنا هذا، إلى سنة 1999م عند إقدامي على تصفح بعض نصوص أبي راس الناصر، ومناقشة كتاباته من خلال بعض مدوناته المختلفة لاسيما التاريخية منها تحت إشراف الدكتور بن نعمية عبد المجيد الذي حفزّنا على ذلك فله منا الشكر الوافر الذي لا حدود له. فاتصلت ببعض القائمين على بعض خزائن المخطوطات والزوايا والشيوخ داخل الوطن وخارجه؛ فزودني بعضهم جزاهم الله عنا كل خير ببعض تلك المدونات. وممّا لفت انتباهي هو أن هناك تراث كبير ومغمور لأبي راس

وغيره من العلماء لا زال قابعا في رفوف خزائن خاصة وأخرى عامة، ينتظر من ينفض عنه الغبار.

وفيما يلي جملة من النقاط المتعلقة بحالة النسخة المعتمدة في التحقيق:

1. وجود اسم الناسخ وتاريخ النسخ ومكانه.
2. ورود عنوان المخطوط واسم مؤلفه الكامل على الورقة الأولى من المخطوط.
3. يقع المخطوط في خمس ورقات كما أشرنا إلى ذلك آنفا.
4. مقاسه 31x21
5. الخط مغربي واضح.
6. يوجد كامل البداية والنهاية.

إنّ اقتناعي بمدى أهمية تحقيق المخطوطات ومدى فائدتها في استكشاف كنه معلومات تلك الكنوز التراثية العريقة، ومن جملتها هذا المخطوط الذي بين أيدينا، وبالرغم من عدم حصولي على نسخة ثانية، إلاّ أنه حزّ في نفسي أن يبقى مخطوط كهذا؛ حبيس رف خزانة أو قابعا لا يحرك له ساكنا رغم أهميته التاريخية. وبعد قراءته مرات عديدة تبين لي أنّ أصل إلى نقاط أهمها:

1- قسمت المتن إلى فقرات حسب ما يقتضيه سياق الكلام ومعناه.

2- كل العناوين الواردة في المخطوط من وضع المحقق.

3- قمت بشرح الأعلام والأماكن والمفردات بالرجوع إلى أمهات الكتب كل حسب اختصاصه.

وفي ختام هذا العرض لا يسعني إلى أن أتقدم بالشكر الجزيل إلى رفيقة دربي التي شاركتني هموم هذا العمل زوجتي. وإلى الشيخ أبي عبد الله شراك الذي زودنا بكير من المعلومات والإشارات. وإلى أستاذي الدكتور بن نعمية عبد المجيد الذي كان له فضل السبق في تحفيزي على الكتابة حول هذه الشخصية.

✍ الأستاذ حمدادو بن عمر

وهران في يوم الخميس/ 13- 04 – 2010م

بسم الله الرحمن الرحيم وصلى الله على سيدنا محمد وعلى آله وصحبه وسلم تسليما



هذه العجالة للشيخ العلامة

سيدي محمد بوراس

رحمه الله ورضي عنه



الحمد لله الذي قيض لحفظ النسب الشريف أقواما :: بعد تطاول الدهور
ومرورها حقبا وسنينا وأعواما :: بينوا ما اندرس :: وأوضحوا ما التبس فهم
الراجحون آراء وأحلاما :: لا يعرف فيهم امتراء ولا افتراء :: وإذا خاطبهم الجاهلون قالوا
سلاما :: والصلاة والسلام على من لم ينقطع له سبب ولا نسب :: إذا انقطع
ذلك من غيره يوم يكون الناس من أجداثها قياما :: صلى الله عليه وعلى آله
وأصحابه وأتباعهم الذين كانوا للدين سيوفا وأقلاما :: أما بعد فاعلم
جعلني الله وإياك من أهل التحقيق والاتفاق :: والتدقيق والارتفاق :: أني أبين
لك في هذه النبذة بعض أشراف بني زيان :: وخصوصا كامل النزاهة
والديانة :: ومزيد المروءة والصيانة :: العارف بالله :: الدال بحاله ومقاله
على الله :: الولي الشهير :: الصالح الكبير سيدي زيان المنتمي إليه أفخر أهل العصر
عبادة وتقى :: والسابقين إلى أوج المعالي ارتقا :: محط رحال الأفاضل وجامع
أشتات الفضائل والفواضل :: المتوكل على الواحد الديان عبد القادر
بن زيان :: إلى أن انتهى إليه من هو أشبه وجده أعاد الله [illegible] الجميع

وعملت له عمل من طلب لمن حب :. وتمار على قادم الحمى وهو قادر إذا حل
في البيداء عقال بعير :. قلت وأما أشراف تلمسان وارشكول الذين ملكوا تلمسان
في أثناء القرن الثاني بعدما توجه إدريس الأكبر رضي الله عنه إلى وليلي وهم أبناء
سليمان أخوه بن حسن بن حسن بن علي بن أبي طالب وليس بنو زيان منهم بل من
أبناء عمهم حمامة وأول من دخل منهم تلمسان السلطان محمد بن سليمان
المذكور لا سليمان نفسه خلافا لابن خلدون وابن حزم وابن أبي زرع لأنه
قتل بفخ في وقعة الأشراف مع جيش موسى الهادي ابن المهدي العباسي
وإنما جاء ابنه محمد ولحق بعمه إدريس للمغرب فوجهه ذهب عن تلمسان
ولما عرف بني يفرن ومغراوة نسبه بايعوه وملكوه ومن نسله بني [illegible]
أهل مدينة أرشكول وقد بادوا ومنهم إبراهيم ملك مدينة تنس
وإليه ينسب سوق إبراهيم بشلف بإزاء زبوج سيدي العروصي ومنهم عمر
الذي ينسب إليه أبو الحسن الذي غربه جبل جرجر وغيرهم وقد بادوا
رحمهم الله اللهم اجعلنا من المحبين لهم المتعلقين بأذيالهم بالله قال الشافعي
رحمه الله ورضي عنه آمين :. يا أهل بيت رسول الله حبكم

فرض من الله في القرآن أنزله
كفاكم من عظيم القدر أنكم
من لم يصل عليكم لا صلاة له

نسخه عبد ربه الحقير الذليل عبد القادر المدعو أبو عبد الله الملقب بن [illegible]
[illegible] الحاج عابد بن الحاج عدة بن الحاج عبد القادر المعروف ببلدية أولاد سيد
الموهوب والآن علي نزيل الجزائر بتاريخ يوم الخميس عمر ربيع الثاني عام ١٣٢٥ ه

القسم الثاني

مخطوط لقطة العجلان
في شرف الشيخ عبد القادر
بن زيان وأنه من بني زيان
ملوك تلمسان

بسم الله الرحمن الرحيم وصلى الله على سيدنا محمد

وعلى آله وصحبه وسلم تسليما

هذه العجالة للشيخ العلامة

سيدي محمد أبو راس الناصر رحمه الله

مقدمة[1]

الحمد لله الذي قيض لحفظ النسب الشريف أقواما، بعد تطاول الدهور ومرورها حقبا وسنينا وأعواما، بينوا ما اندرس وأوضحوا ما التبس، فهم الراجحون أراء، أحلاما، لا يطرقهم امترا ولا افترا، ﴿وَإِذَا خَاطَبَهُمُ ٱلْجَٰهِلُونَ قَالُوا۟ سَلَٰمًا ﴿٦٣﴾﴾[2].

والصلاة والسلام على من لم ينقطع له سبب ولا نسب، إذا انقطع ذلك من غيره، يوم يكون الناس من أجداثها قياما، صلى الله عليه وعلى آله وأصحابه وأتباعهم الذين صانوا الدين سيوفا وأقلاما، أما بعد فاعلم جعلني الله وإياك من أهل التحقيق والاتفاق، والتدقيق والإيقان، أني أبيّن لك في هذه النبذة بعض أشراف بني زيان[3].

---

(1) كل ما هو بين معكوفين من وضع المحقق.

(2) سورة الفرقان، الآية: 63.

(3) أبو زيان: (000-957هـ=000-1550م) أحمد بن عبد الله بن موسى الثاني أبي حمو الزياني من بني عبد الوادي، أبو زيان الرابع: أحد سلاطين تلمسان بعد ضعفها، تنازع عليها هو وأخ له اسمه محمد، بعد وفاة أبيهما، واستقر أبو زيان سنة 947 هـ استعان أخوه محمد بالاسبانيين فأنجدوه بحملة يقودها الدون ألفونس

وخصوصـــا كامـــل النزاهـــة والديانـــة، ومزيـــد المـــروءة والصيانة، العارف بالله الدال بحاله ومقاله على الله، الولي الشـــهير الصالح الكبير سيدي زيان المنتمي إليه أفخر أهل العصـــر عبـــادة وتقى، وأسبقهم إلى أوج المعالي ارتقا، محطّ رحال الأفاضل وجامع أشتات الفضائل والفواضل، المتوكل على الواحد الديّان عبد القـــادر بن زيان، إلى أن انتهى إليه من حواشيه وحفدته أعلى الله مجـــادة الجميع، وأدام جانب عزهم الرفيع.

دي مارتينز Don Alfonso de Martinez فصمد لهم أبو زيان وهلكت الحملة الاسبانية وقائدها (أواخر سنة 949 هـ) على بعد 12 فرسخا من وهران، وبعد أحداث أخرى في السنة نفسها تم الظفر لأبي زيان بالسلطنة، واستمر إلى أن توفي، وكان على صلات حسنة بوالي الجزائر التركي، وجعل خطبة الجمعة باسم السلطان العثماني. الزركلي، الأعلام، ج1، ص:160.

[بنو عبد الوادي وملكهم]

اعلم أن بني عبد الوادي[1] الذين منهم أشراف بني زيان، كانت مساكنهم قبل القرن السابع قبلة تلمسان[2] وشيخهم إذ ذاك جابر بن يوسف العبد الوادي ابن عمّ زيان، وكان ملك المغرب لبني عبد المؤمن من الموحدين تلامذة المهدي بن تومرت[3] الشريف والخليفة، منهم المأمون إدريس بن يعقوب المنصور بن يوسف بن عبد المؤمن[4].

(1) العبد الوادي (000-629هـ=000-1232م) جابر بن يوسف بن محمد بن جدان، من بني عبد الوادي: مؤسس الدولة العبد الوادية في تلمسان، كان مقيما مع عشيرته على مقربة منها، وأساء إليهم واليها الحسن ابن حيان الكومي فاعتقل رؤساءهم، وشفع بهم إبراهيم بن إسماعيل الصنهاجي (شيخ مترجلة لمتونة) فرد الوالي شفاعته، فجمع إبراهيم قومه وقتل الوالي وأطلق بني عبد الوادي وخلع طاعة الموحدين، الزركلي، الأعلام، ج2، ص:105.

(2) تلمسان: مدينة عظيمة قديمة فيها آثار للأول كثيرة تدل على أنها كانت دار مملكة لأمم سالفة، وبينها وبين وهران مرحلتان وهي في سفح جبل أكثره شجر الجوز وكان لها ماء مجلوب من عمل الأول من عيون تسمى لوريط بينها وبين المدينة ستة أميال، ولها نهر كبير يسمى سطفسيف. وقد كانت دار مملكة زناتة في هذه العصور القريبة وحواليها قبائل كثيرة من زناتة وغيرهم من البربر، وهي كثيرة الخصب والرخاء كثيرة الخيرات والنعم، ولها قرى كثيرة وعمائر متصلة ومدن كثيرة ترجع إلى نظرها، ولها خمسة أبواب ثلاثة منها في القبلة: باب الحمام وباب وهيب وباب الخوخة وفي الشرق باب العقبة وفي الغرب باب أبي قرة، وفيها بقية من النصارى ولهم بها كنيسة معمورة. محمد بن عبد المنعم الحميري، الروض المعطار في خبر الأقطار، مؤسسة ناصر للثقافة، بيروت، ط2، 1980، ص:135.

(3) المهدي بن تومرت: (485-524هـ=1092-1130م) محمد بن عبد الله بن تومرت المصمودي البربري، أبو عبد الله، المتلقب بالمهدي، ويقال له مهدي الموحدين: صاحب دعوة السلطان عبد المؤمن بن علي ملك المغرب، وواضع أسس الدولة المؤمنية الكومية، ولد ونشأ في قبيلته، ورحل إلى المشرق، طالبا للعلم (سنة 500هـ) فانتهى إلى العراق، وحج وأقام بمكة زمنا، واشتهر بالورع والشدة في النهي عما يخالف الشرع، فتعصب عليه جماعة بمكة، فخرج منها إلى مصر، فطردته حكومتها، فعاد إلى المغرب، ونزل بالمهدية. الزركلي، الأعلام، ج6، ص:228.

(4) المنصور بن يوسف بن عبد المؤمن الكومي، أبو زكريا، المعتصم بالله: من ملوك الدولة المؤمنية بالمغرب الأقصى، بايع له الموحدون بمراكش، بعد أن خنقوا عمه العادل (عبد الله بن يعقوب) ونكثوا بيعة عمه الثاني المأمون (إدريس ابن يعقوب) سنة 624 هـ.

وقد ولي تلمسان أخاه عثمان؛ وقد ضعف ملكهم فطمعت فيهم بنو عبد الوادي المذكورين. ولما بلغ ذلك عثمان قبض على جماعة منهم فشفع فيهم رجل لمتوني، فردت شفاعته فجمع جموعا وهجم على عثمان فقُبِض، وسرح بني عبد الوادي، وخلع طاعة بني عبد المؤمن، وأراد إحياء الدولة اللمتونية، وأخذ يرضي بني عبد الوادي ويستميلهم، ثم إنه خرج من تلمسان وأمروا جابر المتقدم ودعى الناس لطاعة إدريس المأمون[1]، وكتب بذلك إليه فقنع منه بالخطبة ونقش اسما على السكة[2]، واستولى جابر على تلمسان وعملتها، عدا ندرومة[3] فزحف إليها ودار بها، فأصيب بسهم من داخلها فقتل لثلاث سنين من إمارته.

= واضطرب أمره، وهو شاب غر، وقاتله المأمون (سنة 626) فانهزم يحيى إلى الجبل، وقتل المأمون أربعة آلاف ممن بايعوه. وظلت الحروب بينهما إلى أن استولى عليها (سنة 629). الزركلي، الأعلام، ج8، ص:165.

(1) هو الخليفة الموحدي إدريس المأمون؛ حيث وُصف بغزارة معارفه الدينية والأدبية حتى قال عنه مؤلف «روض القرطاس» إنه كان إماما في الحديث. ومعظم الملوك الموحدين الآخرين كانوا على هذا النحو ولو أن المأمون وفريقا من خلفائه ينتمون إلى القرن السابع. المعجب، ص. 238؛ الكامل، ج 9، ص. 165 ؛ روض القرطاس، ص. 207، 249 ؛ البيان الموحدي، ص. 159 ؛ ابن الخطيب، الإحاطة، ح 1، ص. 184.

(2) السكة: هي النظر في النقود المتعامل بها بين الناس وحفظها مما يداخلها من الغش أو النقص إن كان يتعامل بها عددا أو ما يتعلق بذلك ويوصل إليه من جميع الاعتبارات ثم في وضع علامة السلطان على تلك النقود بالاستجادة والخلوص برسم تلك العلامة فيها من خاتم حديد اتخذ لذلك ونقش فيه نقوش خاصة به فيوضع على الدينار بعد أن يقدر ويضرب عليه بالمطرقة حتى ترسم فيه تلك النقوش وتكون علامة على جودته بحسب الغاية التي وقف عندها السبك والتخليص في متعارف أهل القطر ومذاهب الدولة الحاكمة. ابن خلدون، تاريخ العبر، ج7، ص:92.

(3) ندرومة: مدينة في طرف جبل تاجرا بأرض المغرب، وهي مدينة حسنة كثيرة الزرع والفواكه رخيصة الأسعار، ولها بسائط خصيبة ومزارع كثيرة، وبينها وبين البحر نحو عشرة أميال، ولها مرسى مأمون مقصود وعليه رباط حسن يتبرك به، ويقال أنه من أتى فيه منكرا لم تتأخر عقوبته، قد عرف ذلك من بركته ومن صنع الله فيه. الروض المعطار في خبر الأقطار، ص:576.

ثم ولي ابنه الحسن ثم بعد ستة أشهر سلم في الإمارة لعمّه عثمان فأساء السيرة فخلعوه، ثمّ ولوا أبا عزة زيدان بن زيان[1]، فنكث عنه بنو مطهر وظاهرهم بنو راشد، فكانت بينهم حروبٌ قتل في بعضها، فبايعوا أخاه السلطان يغمراسن بيعة استقلال سابع جمادى الأخيرة سنة سبع وثلاثين وستمائة، والخليفة إذ ذاك من بني عبد المؤمن بالمغرب. ثم أبا زكرياء بعث بهدية من تونس للخليفة عبد الواحد فأخذها يغمراسن[2] فغزاه أبو زكرياء سنة تسع وثلاثين. وقال التنسي سنة خمس وأربعين ثم صلح الحال بينهما، وقلّده إمارة تلمسان ورجع إلى تونس، فبقي ملك تلمسان لبني زيان يغمراسن وبنيه وامتد لهم، إلى أن أخذه من أيديهم الأتراك سنة خمس وعشرين من القرن العاشر، وانجرت بينهم فتن إلى أن صفت للأتراك سنة ستة وخمسين من القرن المذكور.

(1) يشير إلى ذلك ابن خلدون بقوله: "زكراز بن زيان بن ثابت الملقب بأبي عزة فاستدعوه لها وولوه على أنفسهم وبلدهم وسلموا له أمرهم وكان مضطلعا بأمر زناتة ومستبدا برياستهم ومستوليا على سائر الضواحي فنفس بنو مطهر عليه وعلى قومه بني علي إخوانهم ما آتاهم الله من الملك وأكرمهم الله به من السلطان وحسدوا زكراز وسلفه فيما صار إليه من الملك فشاقوه ودعوا إلى الخروج عليه..". ابن خلدون، تاريخ ابن خلدون، ج7، ص:74.

(2) غمراسن وقيل يغمراس بن عبد الواد. سلطان تلمسان، غلب على مدينة تلمسان عند ضعف بني عبد المؤمن، وطالت أيامه، وكان أحد من يضرب به المثل في الشجاعة، وهو الذي قتل السعيد علي بن إدريس المؤمني غدرا بنواحي تلمسان. مات غمراسن في العشرين من ذي القعدة سنة إحدى، وبقي في الملك سبعين عاما أو أقل، وتملك بعده ابنه عثمان. شمس الدين الذهبي، تاريخ الإسلام ووفيات المشاهير والأعلام، تح: عمر عبد السلام تدمري، دار الكتاب العربي، بيروت، ط1، 1987.

فحينئذ أيس منها بنو زيان بعد ما ملكوها ثلاثمائة سـنة وسـتا وعشرين سنة، وتخلل ذلك ملك أبي الحسن لها وابنه أبي عنان نحو الثلاثين سنة. فهذه كيفية ملك بني عبد الوادي لتلمسان باختصار.

[نسب بني زيان]

وأما نسب بني زيان منهم، فقال التنسي رحمه الله في كتابه الدر والعقيان في شرف بني زيان في ذكر نسب من ألـف فيـه ذلـك ونصه:" هو مولانا أبو عبد الله محمد بن مولانا محمد بن أبي ثابت بن أبي تاشفين بن عبد الرحمن بن أبي حمو موسى ابن يوسف بن عبد الرحمن بن يحي بن يغمراسن بن زيان ابن ثابت بن محمد بن زيدان بن يندوكسر بن طاع الله بن علي ابن يمل بن يـزدجن بـن القاسم، ومن القاسم هذا تنسل جمهور بني عبد الوادي، وهـم بنـو طاع الله[1] وبنو دلول[2] وبنو مطهر[3] وبنو وعزان[4] وبنو معطـي وبنو ضمني.

(1) أنظر:ابن خلدون، تاريخ العبر وديوان المبتدأ والخبر، ج7، ص:73.
(2) المصدر نفسه، ج7، ص:73.
(3) المصدر نفسه، ج7، ص:75.
(4) المصدر نفسه، ج7، ص:150.

[نسب عبد الوادي]

أما قبائل بن عبد الوادي وهم بنو ياتكتن وبنو يملـ ومصـوجة وبنو تومرت وبنو ورصطف، فليسوا من ولد القاسم ونسبهم لقيس بن غيلان بن مضر، وانضاف إليهم الزرادلة، لأن زردال[1] وعبد الوادي إخوان وبهم تكمل اثنتا عشر قبيلة المعدودة في بني عبد الوادي، ستة قبائل في ولد القاسم وخمسة في أولاد عبد الـوادي، وواحدة في ولد زردال أخيه، وغلب اسم عبد الوادي على الجميع.

والقاسم[2] المذكور الذي من نسله بنو زيان اتفق النسّابون على أنه من ولد عبد الله الكامل بن الحسن المثنى[3] بن الحسن السبط ابن أمير المؤمنين علي بن أبي طالب وفاطمة الزهراء بنت رسول الله ﷺ.

---

(1) المصدر نفسه، ج7، ص:58.

(2) ابن القاسم (وهو أول من دعى بالرسي لأنه كان ينزل الرسي وهو جبل أسود بالقرب من ذي الحليفة) بن إبراهيم بن إسماعيل بن إبراهيم بن الحسن المثنى بن الحسن السبط بن علي بن أبي طالب. السمعاني، الأنساب، ج3، ص:66.

(3) الحسن المثنى:(000- نحو90هـ=000- نحو708م) الحسن بن الحسن بن علي بن أبي طالب، أبو محمد، الهاشمي: كبير الطالبيين في عهده، كان وصي أبيه وولي صدقة جده، إقامته ووفاته في المدينة. وكان عبد الملك بن مروان يهابه. الزركلي، الأعلام، ج2، ص:187.

ولكن اختلف في طريق اتصاله به، فقيل أنه القاسم بن إدريس بن إدريس بن عبد الله الكامل، وقيل أنه القاسم بن عمر بن محمد بن إدريس بن إدريس بن عبد الله الكامل، وقيل أنه ابن محمد بن القاسم بن إدريس بن إدريس بن عبد الله، وقيل ابن محمد بن عبد الله بن إدريس بن إدريس بن عبد الله.

قال صاحب كتاب بغية الرواد في أخبار بني عبد الوادي: "وهذا القول أشهرها الخ". قلت وفي ابن خلدون "أن السلطان يغمراسن بن زيان، كان يرفع نسبه إلى مولانا إدريس"إهـ.

هذا ما وصل علمنا إليه وحصل الوقوف منا عليه من أبناء زيان وحفدته المشهورين بالملك والعلم والمعرفة والصلاح وهمته، وهم الآن كثير إلا أنهم مغمورون لا يعرفون لا انتهالهم ولا أقصا، ولا حصر ولا استقصا، ولم يبَن ذكرهم إلا في رسوم محكي لفظها ونصها مع زيادة بعض الأسماء ونقصها؛ إذ ليس هذا محط شهادة، حتى يتحرزوا فيه من النقص والزيادة وإنما أتينا بهذه العجالة تعريفا للجاهل بحقيقة الحال، وإجابة لرغبة من رغب في ذلك من الآل، وهو التقى النزيه النسيب الحائز من شرف النفس وكرم الأخلاق أوفر نصيب الفقيه الجليل، الذي تعرف مكانته وقدره على الإجمال والتفصيل، السيد عبد القادر المذكور قبل قليل، فحصلنا هنا ما يكون معرفا بأصله وفصله ومحله، خوفا

من أن يحتاج إلى التعريف، عند من يجهل أصله ونسبه الشريف، فأجبته لما طلب وعملت له عمل من طلب لمن حب، وعار على حامي الحمى وهو قادر، إذا ضل في البيدا عقال بعير.

[أشراف تلمسان]

قلت وأما أشراف تلمسان وارشكول[1] الذين ملكوا تلمسان في أثناء القرن الثاني بعدما توجه إدريس الأكبر رضي الله عنه إلى وليلي[2]، وهم أبناء سليمان أخوه بن الحسن بن الحسن بن علي بن أبي طالب، فليس بنو زيان منهم بل من أبناء عمّهم كما مر.

وأول من دخل منهم تلمسان السلطان محمد بن سليمان المذكور لا سليمان نفسه، خلافا لابن خلدون وابن الأحمر[3] وابن أبي زرع[4] لأنه قتل بفخ في وقعة الأشراف معه جيش موسى الهادي

---

(1) أرشكول أو أرشقول:مدينة في ساحل تلمسان من أرض المغرب بينهما فحص طوله خمسة شرون ميلا، ومدينة أرشكول على نهر تافنا، يقبل من قبليها ويسير بشرقيها تدخل فيه السفن اللطاف من البحر إلى المدينة وبينهما ميلان، وهي مدينة مسورة، وبها جامع حسن فيه سبع بلاطات وفي صحنه جب كبير، وصومعته متقنة البناء، وفيها حمامان أحدهما قديم، وسعة سورها ثمانية أشبار وأمنع جهاتها جوفيها، وبها ابار عذبة لا تغور تقوم بأهلها وبمواشيهم، ولها ربض من جهة القبلة ويقابله جزيرة في البحر تسمى جزيرة أرشكول بينها وبين البر قدر صوت رجل جهير في سكون البحر والريح. محمد بن عبد المنعم الحميري، الروض المعطار في خبر الأقطار، تح: إحسان عباس، مؤسسة ناصر للثقافة، بيروت، طبع على مطابع دار السراج، ط2، 1980، ص:26.

(2) وليلي:مدينة بالمغرب بطرف جبل زرهون، مدينة رومية قديمة، ذكروا أن فيها نزل إدريس بن عبد الله بن حسن بن الحسن. ابن علي بن أب طالب رضي الله عنهم بعد أن انهزم من وقيعة فخ سنة تسع وستين ومائة فاستتر مدة، وألح السلطان في طلبه، فضاقت عليه المذاهب ورغب في الخروج من بلاد المشرق، فخرج معه راشد. المصدر نفسه، ص:609.

(3) بن الأحمر: (000-807 هـ=000-1404م) إسماعيل بن يوسف بن محمد بن نصر الخزرجي الأنصاري النصري، أبو الوليد، المعروف بابن الأحمر: مؤرخ أديب، غرناطي الأصل، إقامته ووفاته بفاس. من كتبه (نثر الجمان في شعر من نظمني وإياه الزمان و(حديقة النسرين في أخبار بني مرين) المطبوع باسم (روضة النسرين). الزركلي، الأعلام، ج1، ص:329.

(4) ابن أبي زرع: (000 - 741 هـ = 000 - 1340 م) علي بن عبد الله (أو ابن محمد) بن أحمد بن عمر ابن أبي زرع الفاسي: مؤرخ من أهل فاس، كان في زمن السلطان أبي سعيد عثمان بن يعقوب بن عبد الحق المريني، وله ألف (سنة 726) كتابه "الأنيس المطرب القرطاس، في أخبار ملوك المغرب وتاج مدينة في

ابن المهدي العباسي، وإنما نجا ابنه محمد ولحق بعمه إدريس للمغرب فوجده ذهب عن تلمسان.

ولمّا عرف بني يفرن[1] ومغراوة بنسبه بايعوه وملكوه، ومن نسله بني يعيش أهل مدينة ارشكول وقد بادوا، ومنهم إبراهيم ملك مدينة تنس[2] وإليه ينسب سوق إبراهيم بشلف بإزاء زبوج سيدي العروصي، ومنهم غمره الذي ينسب إليه الوطن الذي غربي جبل جرجر وغيرهم وقد بادوا رحمهم الله. اللّهم اجعلنا من المحبّين لهم، المتعلقين بأذيالهم بالله، قال الشافعي رحمه الله ورضي عنه آمين:

يَا أَهْلَ بَيْتِ رَسُولِ اللهِ حُبكُمُ فَرْضٌ مِنَ اللهِ فِي القُرْآنِ أَنْزَلَهُ
كَفَاكُم مِنْ عَظِيمِ الفَخْرِ أَنَكُمُ مَنْ لَمْ يُصَلِ عَلَيكُم لاَ صَلاَةَ لَهُ

=أخبار ملوك المغرب وتاج مدينة فاس" ترجم إلى كثير من اللغات الأوربية. الزركلي، الأعلام، ج4، ص:305.

(1) بنو يفرن: هؤلاء من شعوب زناتة وأوسع بطونهم وهم عند نسابة زناتة بنو يفرن بن يصلتين بن مسرا بن زاكيا بن ورسيك بن الديرت بن جانا وإخوته مغراوة وبنو يرنيان وبنو واسين والكل بنو يصلتين؛ ويفرن في لغة البربر هو القار وبعض نسابتهم يقولون أن يفرن هو ابن ورتنيذ بن جانا وإخوته مغراوة وغمرت ووجديجن وبعضهم يقول يفرن بن مرة بن ورسيك بن جانا وبعضهم يقول هو ابن جانا لصلبه والصحيح ما نقلناه عن أبي محمد بن حزم (وأما) شعوبهم فكثير ومن أشهرهم بنو واركوا ومرنجيصة. وكان بنو يفرن هؤلاء لعهد الفتح أكبر قبائل زناتة وأشدها شوكة وكان منهم بافريقية وجبل أوراس والمغرب الأوسط بطون وشعوب فلما كان الفتح غشى افريقية ومن بها من البربر جنود الله المسلمون من العرب فتطامنوا لبأسهم حتى ضرب الدين بجرانه وحسن إسلامهم. ابن خلدون، ديوان المبتدأ والخبر في أيام العرب والعجم والبربر ومن عاصرهم من ذوي السلطان الأكبر، دار إحياء التراث العربي، بيروت، ج7، ص:12.

(2) تنس: مدينة بقرب مليانة بينها وبين البحر ميلان، وهي مسورة حصينة وبعضها على جبل وقد أحاط به السور، وبعضها في سهل الأرض، وهي قديمة أزلية، وشرب أهلها من عين بها، وبها فواكه وخصب واقلاع وانحطاط، ولها أقاليم وأعمال ومزارع، وبها حنطة ممكنة وسائر الحبوب بها موجودة، ويخرج عنها إلى كل الآفاق في المراكب وبها من السفرجل الطيب مما لا يوجد في غيرها، وداخلها قلعة صعبة المرتقى ينفرد بسكناها عامل تنس لمنعتها، وبها مسجد جامع وأسواق جميلة كثيرة. الروض المعطار، ص:138.

نسخه عبد ربه الحقير الذليل عبد القادر المـــدعو أبـــو عبـــد الله الملقب شراك بن الحاج عابد بن الحاج عدة بن الحاج عبد القـــادر المعروف ببلدية أولاد سيدي الموهوب ولاية غليـــزان الجزائـــري، بتاريخ يوم الخميس 14 ربيع الثاني عام 1452هـ.

بني يسوس أهل مدينة [illegible]

تنس[2] وإليه ينسب سوق إبراهيم بمستغانم بمازونة زمورة سيدي العروصي، ومنهم عمرو الذي ينسب إليه الوطن الذي غربي جبل جرجرة وغيرهم وقد بادوا رحمهم الله اللهم اجعلنا من المحبين لهم، المتعلقين بأذيالهم بالله. قال الشافعي رحمه الله ورضي عنه آمين:

يا أهل بيت رسول الله حبكم ... فرض من الله في القرآن أنزله

كفاكم من عظيم القدر أنكم ... من لم يصل عليكم لا صلاة له

فهرس المحتوى

القسم الأول

التقديم للمؤلف والكتاب

القسم الثاني

كتاب لقطة العجلان في شرف سيدي عبد القادر بن زيان وأنه من بني زيان ملوك تلمسان

تمت بحمد الله

صدر للمؤلف عن الوزارة كتاب:

